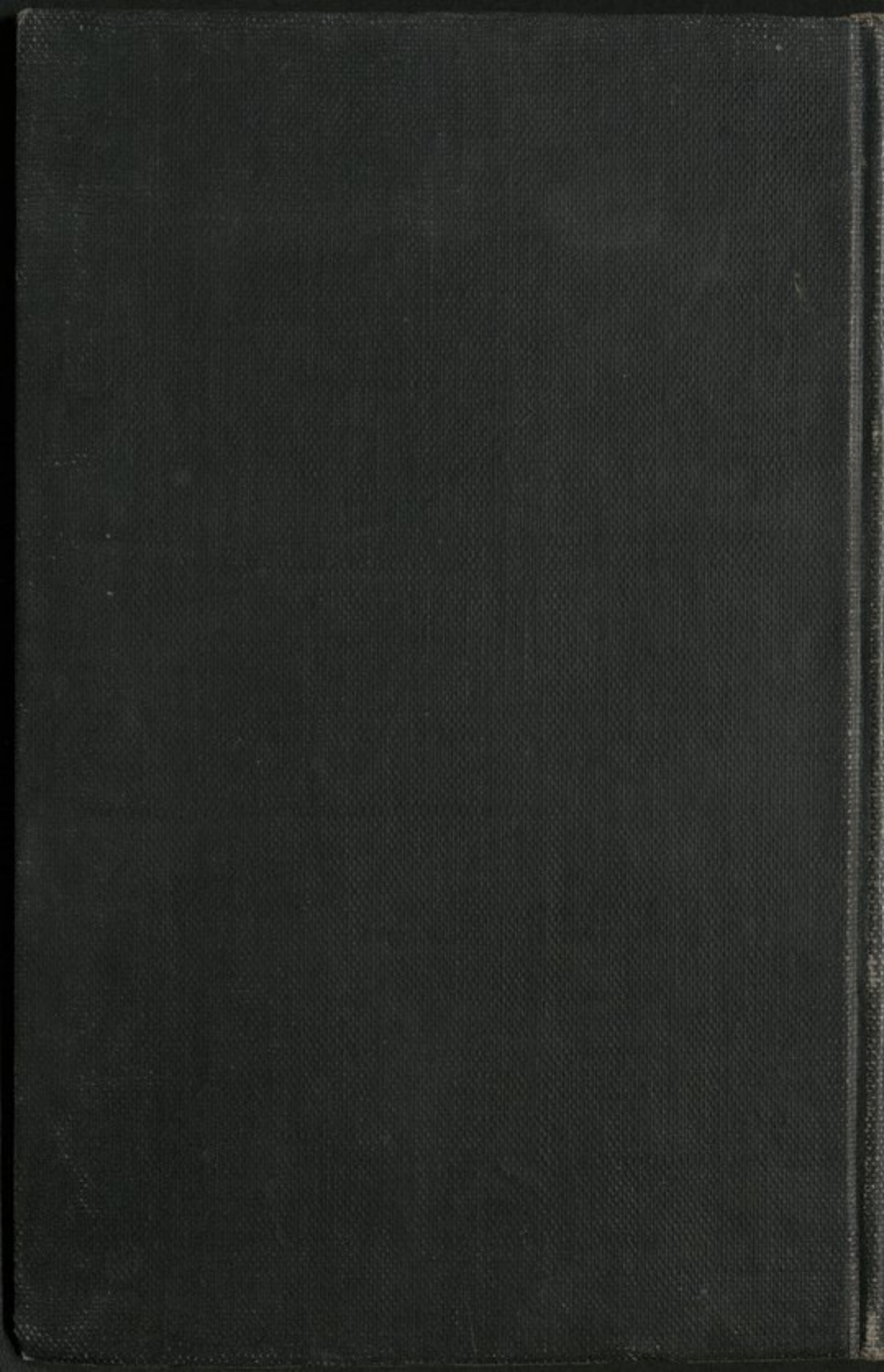
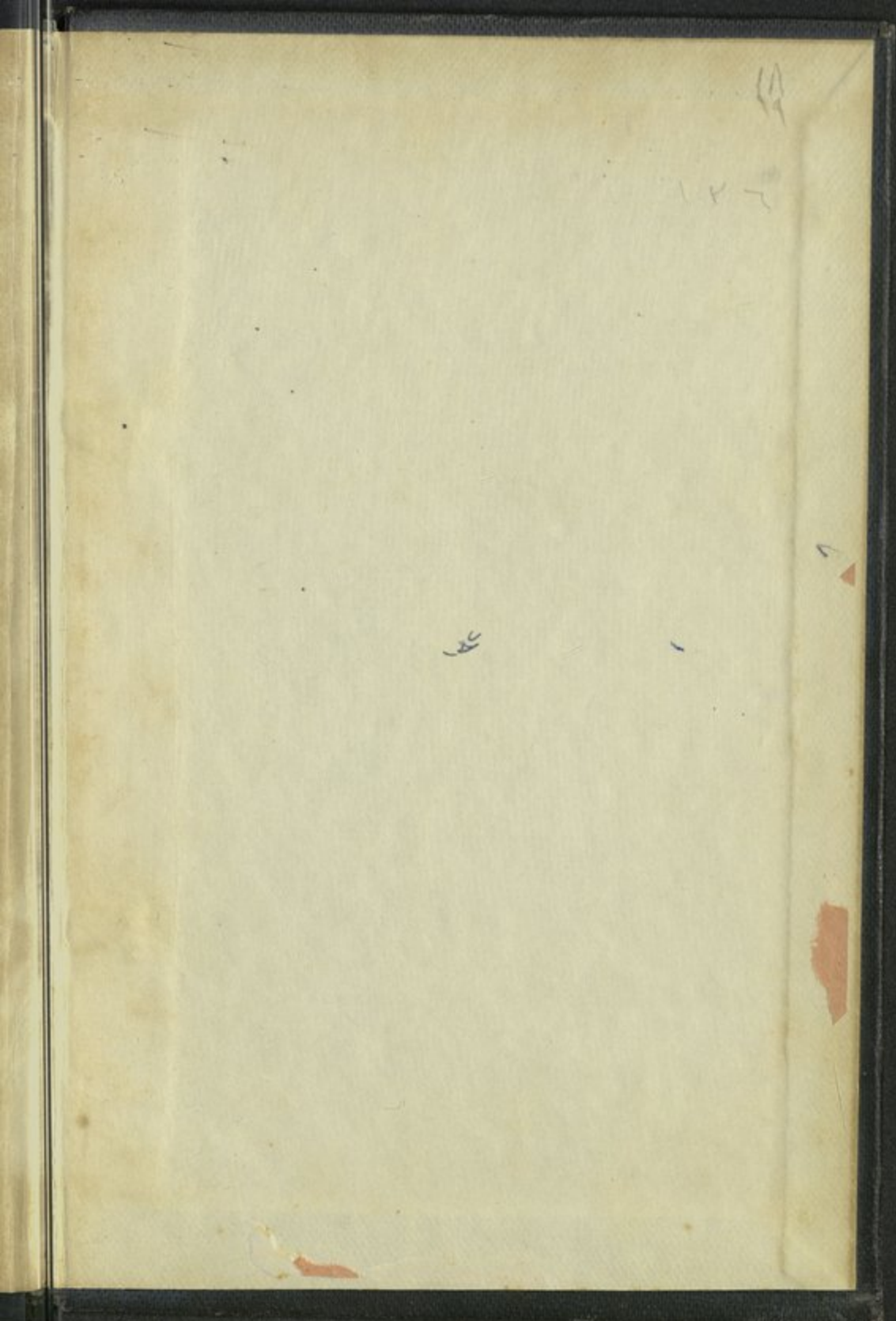






2001
R561

03302



341.1
R56tA
c.1

التعاون الدولي والسلام العام

تأليف

محمد رفيعت بك

59660



مستزعم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

Cart. Dec. 1945



دارالمعارف

للطباعة والنشر

المحل الرئيسي بالقاهرة	٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية	٢ ميدان محمد علي
مكتب فلسطين وشرق الأردن	شارع مأمون الله بالقدس
مكتب السودان	شارع السردار بالخرطوم

تقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبعد فسيكون هذا الكتاب في متناول الناس في الوقت الذي يوشك فيه العالم أن يتحرر من الخوف ومن أسر الحرب ليستمتع بالأمن والطأينة والسلام العام ، ويفتح عهداً يبدأ صاحباً قلقاً تتجاوب أصداؤه بعويل « المولود الجديد » الذي يترقب الأهل والخلان في اجتماعهم القريب في « سان فرنسيسكو » مقدمه السعيد . ويقول الحكماء والعارفون بالأنساب إن الولادة في هذه المرة ستكون عسرة كسابقها ، ولكنهم يؤكدون أن الطفل سينشط ويقوى متى رأى النور ، وسيكون أسعد حفظاً من أخيه ، فيترى في أحضان أمه وفي كنف أبيه ، ولا ينكره أحد من أهله وعشيرته فيولون عنه وجوههم هارين . ويستدلون على ذلك بأن مسقط رأس هذا الطفل المرتقب سيكون على أرض العالم الجديد بلد أمه وأبيه وقبيلته التي تؤويه .

وعلى ذلك لن يصح القول في هذه المرة بأف التاريخ يعيد نفسه ، اللهم إلا إذا عاد القوم إلى أخطائهم وأهملوا عبرة الماضي فشغلوا بأنفسهم عن مولودهم ، وأغواهم الجهل والأثرة والجشع ، فاتبعوا شيطان التسليخ والحرب يقودهم إلى الخسران والدمار « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وهذا الكتاب يحاول أن يرفع الحجب عن الأعين ويلقي ضوءاً من
اليقين والمعرفة على غريزة الخير في البشر ، وعلى جهود العاملين في سبيل
التفاهم والتعاون السياسى ، عسى أن يكون في درس الماضى وقاية من أخطائه
وعيوبه ، وسبيل إلى حسن فهم موضوع السلام وتعرف أصوله وقواعده .
ولعل ذلك أن يكون باعثاً على الأمل فى نظام يكفل للعالم سلاماً دائماً
ومستقبلاً آمناً هائلاً إن شاء الله .

محمد رفعت

مارس سنة ١٩٤٥

الفصل الأول

تمهيد

لماذا نحارب ؟

الحياة كفاح ، وكل كائن حيّ نام فإنما يكافح ويقتات ليعيش وينمو ويتكاثر حتى يأذن الله أن يموت . هذه سنة الطبيعة التي أمدت الحيوان عاليه وسافله بمختلف الأسلحة ، من أنياب ومخالب وقرون وزعانف ، يقاتل بها ليقتنص فريسته ، ويدفع بها عن نفسه الأذى ضد عوادي غيره من الحيوان حيناً ، وضد عوادي الإنسان أحياناً ، إذ الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي سلحته الطبيعة البشرية بالعقل وهو أقوى وأمضى سلاح وهبه الله تعالى للإنسان وميزه به على سائر المخلوقات ؛ وبالعقل والحيلة استطاع الإنسان أن يعمل بيديه ، فصنع سلاحه واستخدم سائر حواسه وقواه في بسط سلطانه على ما حوله من نبات وحيوان وماء ويابس . وكلما لجت به الحاجة إلى الميرة والغذاء حشد جموعه وعتاده وهاجم القبائل والجماعات المجاورة فقاتل رجالها وسبي نساءها وصادر نتاجها واحتل أرضها . وبهذا اندمجت القبائل ، أو أخضعت ، واتحدت وظهرت الحكومات وتكونت الدول وأساس سلطانها القوة المنظمة التي تتمثل في الرجال المسلحين عند الحاجة سواء أكانوا أحراراً وطنيين أم أجانب مرتزقة . بهم يسان النظام في الداخل وتأمين البلاد خطر العدوان في الخارج ، وعليهم المعول إذا لاحت بارقة أمل في توسيع رقعة الدولة ونشر سلطانها على الأرضين والأسواق المجاورة .

العامل الغريزي :

لذلك يرجعون السبب الأول في نشوء الحرب بين البشر إلى العامل الغريزي ، فقالوا إن الإنسان ميال بطبعه ونشأته إلى الشر والأنانية وحب المقاتلة . وما دمتنا لا نستطيع تبديل الطبيعة البشرية فإن ظاهرة الحرب تبقى الملاذ الأخير تلجأ إليه الدول إذا تضاربت مصالحها واشتد بينها التنافس وعز عليها الوفاق . ويستدلون على ذلك بما يبدية الأطفال والشبان في سن مبكرة من إعجاب بالقوة وتقديس للبطولة ومحاكاة للحروب في حركاتهم وألعابهم . ونسئ القوم أن الطبيعة البشرية في مظاهرها الاجتماعية تتحول وتشكل طوعاً لرغبة المجتمع ووفقاً لمقتضيات البيئة وعوامل الرقي ، وأن المجتمع أو القانون قد استطاع أن يقضى على كثير من مظاهر غريزة حب المقاتلة التي يعتبرونها أساساً لنشأة الحروب ، فأبطل المبارزة بين الأفراد وكانت من مفاخر الرجال في القرون الماضية ، كما قضى على القرصنة والرق والمرتقة في الحروب . وكما تغلب المجتمع على غريزة حب المقاتلة بين الأفراد بأن وضع قانوناً يمنع الاعتداء والمقاتلة بينهم ، وجعل من وراء القانون قوة تسنده وتنفذ كلمته بعد أن كانت القوة من وراء المعتدى تسنده وتشد أزره على الضعيف — كذلك تستطيع الدول أن تضع قانوناً يمنع المقاتلة والحرب بين الدول بعضها وبعض ، وتجعل من وراء هذا القانون قوة دولية تؤيد سلطانه وتكفل تنفيذ أحكامه .

وليس في إعجاب الشباب بالقوة وتقديسهم البطولة ما يدل على تأصل طبيعة الحرب في نفوسهم . فليس من شك في أن المنافسات والمباريات الجسدية والرياضية ، بل المنازعات بمختلف أنواعها بين المجموعات والطبقات والطوائف ، من شأنها أن تستثير في الشباب غريزة المقاتلة الكامنة في نفوسهم ، ولكن بعد تهذيبها والتسامح بها وتحويلها إلى غريزة طيبة صالحة للفرد وللجماعة . أما الحرب والتدمير

وإراقة الدماء وقتل النفوس البشرية من غير ذنب جنته فهي شرور لا تثيرها
غريزة حب المقاتلة وحدها ؛ إذ لا يعقل أن يقف الناس صفوفاً مسلحين من تلقاء
أنفسهم منادين بإشباع غريزة المقاتلة وإرضاء شهوة الحرب في نفوسهم بمحاربة
الغير وتقتيل الأفراد وتدمير البلاد ، وإنما تتحرك الشعوب للحروب وتضحي في
سبيلها إذا دعاهم داعي الوطن أو استثارتهم حكوماتهم الوطنية وحركت فيهم
عوامل الكراهية وحب الجهاد والانتقام لصيانة الشرف الرفيع الذي لا يسلم من
الأذى حتى يراق على جوانبه الدم !

— إذن ليست النزعات أو العواطف البشرية هي السبب الأصيل للحروب ، وإنما
يرد سببها إلى سوء استغلال الحكومات لهذه النزعات التي تدعو إلى الحروب وتجعلها
واجباً مقدساً في نظر الجميع . ولا صحة البتة لما يقوله البعض من أن هناك شعوباً ،
كالشعب الألماني ، نشأت بطبعها ميالة للحروب وأنه من العبث العمل على إبرائها
من داء حب المقاتلة وغريزة التفوق ؛ فمثل الألمان في ذلك مثل أية أمة أخرى
يستثيرها قادتها وتدعوها حكوماتها إلى امتشاق الحسام في سبيل الوطن .
ولا تسئل عن مفعول هذا النداء في نفوس القوم فإنه « إذا أذن النفير بالحرب
ذياًداً عن حرمة الوطن فسرعان ما ينسى أبناؤه منافعهم ولذاتهم وكل ما تطلعوا
إليه من متع الحياة وأسبابها ، بل سرعان ما ينسون أبناءهم وأهلهم وأدنى
الخلق إلى قلوبهم ، ينسون كل أولئك ولا يذكرون إلا شيئاً واحداً هو الوطن .
ولهذا الوطن ينفرون خفاً ليبذلوا في سبيل حريته ومجده واستقلاله مهجهم طيبةً
بها نفوسهم ، إذ كان الوطن هو كل تراث الآباء ، وهو كل مجد الأبناء ، وما خير
العيش بعد كل هؤلاء ^(١) » .

(١) من لإنشاء المرحوم الأستاذ عبد العزيز البشري في كتاب « التربية الوطنية » .

لذلك تعلق الحكومات الحديثة أهمية كبرى على تهيئة الرأى العام وتغذيته بالآراء والمبادئ التى تريد أن تطبعه بها ، وتلجأ فى ذلك إلى استخدام الصحافة والدعاية الحربية و إلى نظم التعليم ؛ وبذلك تضمن الحكومات أن تستند فى أزماتها إلى الرأى العام الذى تلوذ به إذا دعت الحال للتجنيد واستعمال القوة ؛ إذ لا شك فى أن كل قوة حربية مهما بلغت درجتها من العناية والكفاية لا تدعمها قوة أدبية موازنة من جانب الجمهور لا يمكن أن يكون لها الأثر الفعال فى تغليب إرادة الدولة . فقد انقضى الوقت الذى كانت فيه الحكومات تزج بنفسها فى الحروب دون أى اعتبار يذكر للرأى العام ، وفطنت الآن إلى أهمية سلاح الدعاية فألفت له الوزارات ، وكانت وزارة الدعاية برئاسة لورد نورثكليف فى إنجلترا من أهم العوامل التى ساعدت إنجلترا على كسب الحرب العالمية الأولى . وفطن إلى ذلك مسؤولين فى أثناء أزمة أثيوبيا سنة ١٩٣٥ فلم يحفل بقوات بريطانيا التى كانت تناوئه ، لأنه كان يعلم تمام العلم أن من وراء القوات البريطانية فى البحر وفى الجو وفى البر إرادة الشعب الإنجليزى الكامنة التى كانت تتوق إلى السلم وتمتقت الحرب ، فتحدثت إيطاليا وبريطانيا وتحدثت معها عصبة الأمم وكسب مسؤولين الحرب . وهانحن أولاء نشهد الآن الصراع العالمى الحالى وفيه نستبين أثر الصحافة والخطابة والدعاية فى تحريك النفوس البشرية للتضحية الكبرى طوعاً وافتخاراً فى سبيل الوطن . ترى ماذا يكون أثر هذه الصيحات لو أنها انطلقت تنادى بالخير والسلام وتدعو الناس إلى التعاون والبر والحسنى ؟

العامل الاقتصادي :

أما العامل الاقتصادي لنشأة الحروب فيتلخص في أن الدول إذا اجتازت طور البداوة والزراعة وانتقلت إلى طور الصناعة والإنتاج احتاجت بطبيعة الحال إلى حاجات تستوردها من الخارج لغذائها أو لصنعها أو للغرضين معاً، واحتاجت أيضاً إلى الأسواق تروج فيها سلعها وتنشر نفوذها الاقتصادي أولاً ثم السياسي ثانياً. وضماناً لتحقيق غرضها من الوصول إلى الخامات والأسواق ترى الدول لزماً عليها أن تحتفظ بأسطول تجارى وحربى ينقل الخامات ويدفع عنها الأذى وهى فى عرض البحار ، وبالجيوش البرية تعبئها عند الحاجة ذوداً عن أسواقها ومناطق نفوذها ، ثم لا يلبث نفوذها الاقتصادي أن يتحول إلى نفوذ سياسى ، وما أسرع ما ينقلب هذا النفوذ السياسى بفضل القوة إلى نفوذ حربى استعمارى . وما دامت العلاقات بين الدول بعضها وبعض تقوم على أساس الغلبة والتنافس والأثرة وعدم التعاون فإن الحرب لا بد أن تقوم بينها فى سبيل الوصول إلى الغرضين السابقين : الخامات والأسواق . ومن أجلهما قامت معظم الحروب فى عصور التاريخ المختلفة وفى مقدمة أسبابها الدوافع الاقتصادية ، فمصر حاربت جيرانها فى الماضى فى الجنوب وفى الشرق وفى الشمال لحاجتها إلى المعادن والأخشاب ، وحاربت روما قرطاجة للسيطرة على طريق التجارة فى البحر المتوسط ، وقامت حروب الاستعمار بين انجلترا من جهة وإسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا على التوالى فى الأزمنة الحديثة بسبب استعمار الهند وأمريكا والسيطرة على طرق التجارة فى المحيطين الأطلنطى والهندي .

ولكن المنافسة فى الميدان الاقتصادى مبدأ سليم يؤدي إلى أحسن النتائج إذا وسع نطاقه الأفراد والشركات والجماعات ، فما باله فى المجال الدولى يجر إلى الاستعمار

والحروب ؟ لماذا نرى التنافس التجارى والصناعى قائماً على أشده بين مختلف الولايات المتحدة فى أمريكا ومع ذلك لم نسمع بأن هذه الولايات تريد أن تقاتل ويحارب بعضها بعضاً فى سبيل الغلبة الاقتصادية ؟ السبب فى ذلك أن الأفراد والشركات والجماعات لا ترى فى المنافسة الاقتصادية إلا سبيلاً إلى شىء واحد هو تنمية الثروة بقصد رفع مستوى الحياة فحسب ، أما الدول فتتخذ من المنافسة الاقتصادية أداة لاستغلال نفوذها السياسى بضم المستعمرات وتسخير الغير فى خدمة أغراضها الخاصة ضد منافسيها .

وقد خطت عصبة الأمم الخطوة الأولى فى سبيل تقليص أظفار الاستعمار ووضع حد للجشع الاستعمارى ، فقررت فى المادة الثانية والعشرين من ميثاق العصبة أن يكون الاستعمار لفائدة السكان أولاً ، وحرمت تسليحهم والاتجار بالأسلحة والمشروبات الروحية بينهم ، ثم أنشأت قسماً خاصاً فى العصبة لمراقبة شئون المستعمرات ، وأوجدت نظاماً جديداً أسمته « الانتداب » اتبعته الدول فيما يخص الأقاليم التى كانت تحكمها تركيا وألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى . ومعنى هذا النظام أن تشرف الدولة صاحبة الانتداب على إدارة هذه الأقاليم نيابة عن العصبة وتكون مسئولة أمامها وتقديم لها تقريراً سنوياً بأعمالها ، على أن يكون الغرض الأول من انتدابها مصلحة أصحاب البلاد وتميئتهم فى البلدان الراقية نوعاً لتولى زمام أمور بلادهم فى الوقت المناسب .

ولو خلصت نيات الحكومات من الوجهة الاقتصادية وتجردت أغراضها من الدوافع السياسية ونفذت جميع الشروط وحققت جميع الأغراض التى قصد إليها ميثاق عصبة الأمم بشأن الاستعمار والانتداب لبات الاستعمار أو الانتداب تكليفاً وعبئاً ثقيلاً على الدول صاحبات الانتداب ، ولانتهت الحروب التى تقوم

بين الدول بسبب الاستعمار وأصبحت المنافسة الاقتصادية بينها ترمى — كما يرى التنافس بين الأفراد والجماعات — إلى زيادة الإنتاج واثقانه بأقل النفقات لصالح المستهلكين في جميع الأنحاء، وفي هذا كل الخير والبركة للعالم أجمع، وحينئذ لا يضير الإنسانية أن يتنافس في مثل ذلك المتنافسون .

الحكومات والصوامح الحيوية :

يتضح إذن من بحث العاملين الأساسيين لظهور الحرب، وهما العامل الفريرى والاقتصادى، أن الحكومات أيا كان نوعها هى التى تخلق أسباب الحروب باسم الوطن، فتدعو لها وتهبىء العقول لقبولها والاستشهاد فيها . غير أننا نلاحظ أن الحكومات الفردية المطلقة التى تقوم على الطغيان والأثرة والقوة، أدنى إلى خلق الحروب وأسرع من الحكومات الدستورية الديمقراطية التى تؤثر كلفة القانون وصالح الجمهور على ما عداه .

ولكن الصفة المشتركة بين الحكومات جميعها والتى كانت سبباً فيما انتاب الإنسانية من بلاء الحروب، هى أنها جميعاً تتمسك بحق السيادة الكاملة وتأبى أن تعترف لأية هيئة دولية بأية سلطة أكبر منها، بل إنها لترى فى كل عمل وإن صغر من شأنه أن ينتقص هذه السيادة هدماً لاستقلالها واهداراً لكرامتها، وتسمى الحكومات كل ما يتصل بحق السيادة التامة « صوالحها الحيوية » تصونها وتحرص عليها حرص البخيل على أعز ما يملك . فمن أجل هذه « الصوالح الحيوية » أبت الدول فى نهاية القرن التاسع عشر أن تقبل مبدأ التحكيم الدولى فى المسائل التى تمس الشرف الوطنى، ومن أجل هذه الصوالح لم تقبل الدول أن تنزل عن شئ ما فى سبيل المسؤولية المشتركة لضمان السلم بين الدول، فترك للدول حق

الانسحاب من عصبة الأمم كما ترك توقيع العقوبات على الدولة العاصية دون أى تحديد .

ولما أصدرت الولايات المتحدة بالاشتراك مع فرنسا ميثاق « كيلوج » سنة ١٩٢٨ وفيه تعهدت الدول المشتركة في الميثاق باستنكار الحرب كوسيلة لحل المنازعات الدولية ، أبدت بعض الدول تحفظات قبل التوقيع ؛ ومن هذه التحفظات تبين أثر تمسك الدول بما تسميه « مصالحها الحيوية » في عرقلة مساعي السلم العام ؛ فمن ذلك أن الحكومة البريطانية ذكرت في خطاب لها أن هناك أقاليم في بقاع معينة من العالم يتوقف على سلامتها وعدم مس كيانها أمنُ الإمبراطورية البريطانية وسلامتها ، وعلى ذلك فهي تقبل الموافقة على الميثاق بشرط ألا تقيد حريتها في العمل في تلك البقاع . وهي تعنى بذلك مصر وقناة السويس ومناطق نفوذها في الشرق الأوسط . وقد ذكرت إيطاليا في أثناء أزمة أثيوبيا أنها قبلت ميثاق كيلوج بتحفظ في شأن أفريقيا وأثيوبيا كتحفظ بريطاني بشأن مصر والعراق . ومع أن مصر والعراق والمملكة السعودية العربية وكل دول العالم تقريباً قد انضمت إلى ميثاق كيلوج ضد الحرب فإن الميثاق بقي حرفاً ميتاً إزاء التحفظات الظاهرة والباطنة التي اشترطتها الدول ، وإزاء ما فسرت به فرنسا وغيرها الميثاق من أن الحرب التي استنكرتها الدول في الميثاق هي الحرب المهاجمة ، أما الحرب الدفاعية فإن الدول تعتبرها « صالحاً حيويًا » وحقاً طبيعياً لها ، ليس للمواثيق أو المعاهدات أن تحد من حرية الدول في استخدامه .

التسلح والحرب مترادفان :

لذلك واصلت الدول سياسة الاستعداد للدفاع فسلحت نفسها بمختلف الأسلحة البرية والبحرية والجوية ، وسمت وزارات الحربية بها وزارات الدفاع الوطنى ، كأنما يكفي مجرد تغيير الأسماء لإفساد تلك العدد الجهنمية التى كانت تعباً للحرب ؛ وكانت كلما زادت دولة فى قواتها ظنت الأخرى أنها المقصودة بهذا الاستعداد فأخذت هى أيضاً بأسباب التقوية ، وهكذا حتى شمل التسليح معظم الدول وغطت ميزانيته على جميع مرافق الحياة فى الدولة .

ويجب أن نذكر أن للحكومات والأمم والجماعات أعصاباً كأعصاب الأفراد : لها طاقة لا تتعداها . فكما أن الأفراد المسلحين إذا ساروا فى الليل البهيم واجتازوا مسالك وعرة ثم تراءت لهم من بعد أو قرب أخيلة وأشباح ، ظنوها عصابة من اللصوص تتربص بهم فيفقدون توازنهم العقلى والعصبى ويقذفون أسلحتهم على أول عابر سبيل — كذلك شأن الحكومات والأمم التى تأخذ أهبتها من السلاح وتقف مترقبة اقتراب الساعة — لا بد أن ينتهى مصيرها إلى الحرب عاجلاً أو آجلاً .

وظاهر أنه متى وجدت الدولة نفسها وقد تسلحت واستكملت عدتها للدفاع فما أيسر أن تتحول من قصد الدفاع إلى الهجوم ، فما هى إلا عملية شكلية بحجة لا تقتضى تغييراً أو تنظيمًا جديدًا ، فقوات الدفاع نفسها هى التى توجه للهجوم ، وكل دولة تدخل الحرب تعتبر نفسها فى حالة دفاع عن كيانها وأن الأجنبى هو المهاجم البادى عادة بالعدوان . ففى الحرب الكبرى الأولى ادعت ألمانيا أنها إنما تحارب لتخليص نفسها من الأسر الحديدى الذى كان يحيط بها غرباً من جانب

فرنسا وشرقاً من جانب روسيا، وعلى رغم ارتباط انجلترا بفرنسا ارتباطاً وثيقاً اعتبرت اختراق ألمانيا لحياض بلجيكا تهديداً لكيانها وسلامة مصالحها، وبقي موضوع مسئولية قيام الحرب العالمية الأولى مثار نقاش ونقد بين الساسة والكتاب حتى الآن؛ فقد قررت المادة ٢٣١ من معاهدة فرساي أن ألمانيا وحلفاءها مسئولون عن الأضرار والخسائر التي لحقت بحكومات الحلفاء ومواطنيهم بسبب الحرب التي فرضتها ألمانيا وحلفاؤها عليهم. ومع أن الغرض الأول من هذه المادة كان تحميل ألمانيا نفقات التعمير في البلدان التي خربتها فإن خطيئة الحرب قد لصقت بالألمان على أثر إقرار هذه المادة واتخذ منها زعماءهم سبباً جديداً لإثارة البغضاء والكراهية وحب الانتقام في نفوسهم.

وفي هذه الحرب التي كادت تحول بلدان أوروبا إلى خرائب ومقابر لم يزل كلا الطرفين يقول إنه في موقف دفاع؛ فيزعم الألمان أنهم يدافعون عن مجالهم الحيوى، ويؤكد الحلفاء أنهم إنما ينتصرون للأمم الصغيرة ضد الظلم والعدوان والتسلط. ولا يخلو الحال في كل عهد من حكومة شريرة يخشى الجميع بأسها ويعرف عنها الجشع والبطش والظلم، وسرعان ما يتألب عليها الجميع لذلك وما يزالون بها حتى تعود سيرتها الأولى أو أدنى منها. كذلك كان نصيب أسبانيا في القرن السادس عشر، وكذلك كان نصيب فونسا في القرن الثامن عشر، وكذلك كان نصيب روسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أن استردت حيويتها الجديدة بعد ثورتها سنة ١٩١٧، وها هي ذى ألمانيا تنال نصيبها الآن على وجه لم تنل مثله دولة من قبل.

وإذا كان التاريخ يذكر عهد الفروسية في العصور الوسطى حين كان العرف يقضى على كل رجل حر أن يتسلح ويتعلم فنون السلاح والقتال ليستكمل أسباب

الفتوة ، فسيذكر التاريخ هذا العهد بأنه العصر الذي كان العرف فيه يقضى على كل أمة حرة بأن تتسلح من قمة رأسها إلى أخمص قدميها لتستكمل أسباب الغلبة ؛ وبدلاً من تلك المباريات والمناورات الصورية الحربية التي كان يتسلى بها الفتيان في العصور الوسطى ، قامت الحروب الحديثة بين الأمم بأهوالها وكامل عددها الجهنمية فأشاعت الموت والحرمان والمرض والدمار في معظم أنحاء المعمورة واستهدفت لأجلها المدنية لخطر الزوال .

وترجع أسباب المغالاة في هذا التسلح العام الذى أدى إلى الكارثة الحالية إلى ضعف أداة السلم التي تمخضت عنها الحرب العظمى الأولى ، وهى عصبة الأمم ، وإلى خيبة الأمل فى مبدأ التضامن الدولى للتأمين ضد الحرب ، ويسمى التأمين المشترك Collective Security وهو المبدأ المفهوم من مقتضى المادة العاشرة وما يليها من ميثاق عصبة الأمم ، وفيها تتعهد الدول بأن تكون كل منها مسؤولة عن سلامة أراضي الأخرى واحتفاظها باستقلالها السياسى والدود عنها ضد كل عدوان .

وقد خابت آمال الأمم لأن معظم الدول التى كانت تؤمن بهذا المبدأ لم ترفى أول الأمر ضرورة تدعوها إلى زيادة التسلح ، وخاصة بعد أن انضمت ألمانيا إلى العصبة سنة ١٩٢٦ . فلما تفتحت العيون على مشهد انهيار هذا المبدأ بعد أن اعتدت اليابان على منشوريا ووقفت إيطاليا تتحدى العصبة بمهاجمتها أثيوبيا زالت الفشاوة عن الأعين وأخذ الجميع يتنافسون فى التسلح — كل لنفسه — وتفرقت الجماعة بددا .

أما الاعتماد على المعاهدات والتحالفات والمواثيق السياسية فقد برهنت الحوادث التى تلت الحرب العظمى الأولى على أنها لا تعدو أن تكون

قصاصات من الورق يرمى بها في سلة المهملات إذا لم يجد فيها القوى سنداً لأغراضه ضد الضعيف ، وزالت القداسة التي كانت للعهود والمواثيق قديماً وحل بها الهوان كما حل بكثير من النظم والتقاليد التي كان يعتز بها من قبل ، فجاء الانقلاب الفاشستي والنازي أخيراً فجرفها ومزقها فيما مزق شذر مذر .

ثم جاءت الحرب الحالية فأقامت الدليل بصفة قاطعة على إخفاق سياسة الحرب الخاطفة ، وعدم جدوى التسليح بين الأمم الصغيرة التي هاجمها العدو في أول سنى الحرب الحاضرة فحصد قواتها حصداً ولم تقو على المقاومة إلا أياماً معدودة ضاعت على أثرها القوات التي ذاقت هذه الدول في سبيل أعدادها ألم العوز والحرمان سنين طويلة . أما التسليح بين الدول الكبرى فكان عظيماً وهائلاً في البلاد الدكتاتورية تمكنت بفضلها أن تتفوق في الميدان سنتين أو ثلاثاً ، حتى إذا كمل استعداد الدول الديمقراطية ووجدت كلمتها استطاعت أن تثبت في الميدان ، لتنجو من الهلاك أولاً ، ثم لتكيل لعدوها الصاع صاعين أو أكثر ، حتى دب اليأس في صفوفه وبات يرقب مصيره المحتوم .

إذن لم يُجد التسليح ولم تغد منه المانيا أو إيطاليا أو فرنسا شيئاً يذكر . ولو لم تتحد كلمة بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة وتنسق جهودها لباءت كل منها كذلك بالخسران لا محالة . ما معنى ذلك ؟ معناه أنه يجب أن يقضى نهائياً ومن غير رجعة على التسليح الفردي للأمم ، وأن يكون المستقبل للتسليح الدولي ، فهو وحده الكفيل بردع المعتدى وكسب المعركة . وكما أن القانون المدني يحرم تسليح الأفراد إلا لأغراض معينة ، حتى إذا ما اضطرب جبل الأمن في بلد وقامت عصابات تنشر الرعب بين المواطنين وتعيث في الأرض فساداً كان أول ما يقضى به القانون والواجب أن توجه إلى الأشرار قوة بوليسية مرهوبة تنزع

سلاحهم وتصون الأمن من أدام بتطبيق القانون عليهم — كذلك يجب أن تنظم العلاقات بين الدول على هذا النحو فيقوى القانون الدولي وتصبح له قوة عسكرية مرهوبة تنزع سلاح الحكومات والشعوب التي تحدتها نفسها بتهديد السلام العام .

التوازن الدولي من اسباب الحرب :

وهناك عامل مهم طالما تذرعت به الدول في تبرير إعلانها دخول الحرب ، وهو التوازن الدولي ، ومعناه التكافؤ بين الدول من حيث القوة والنفوذ ، فإذا حاولت إحداها توسيع نفوذها إقليمياً أو سياسياً تصدت لها الدول الأخرى ومنعتها من المضي في مشروعها الذي يهدد مصالح الآخرين . وقد كان التوازن الدولي مبدأ سياسياً سارت على نهجه دول أوروبا منذ القرن السادس عشر ، فتكونت التحالفات ضد الإمبراطور شارل الخامس حين اتسع سلطانه ، وفي القرن الثامن عشر أرسل لويس الرابع عشر ملك فرنسا حفيده فيليب ليتولى عرش أسبانيا وخشيت الدول أن يؤدي ذلك إلى ضم أسبانيا إلى فرنسا فيزداد بذلك نفوذها وتصبح خطراً على الدول الأخرى فتألفت محالفة أوروبية ضده وقامت حرب الوراثة الأسبانية — وفيها امتاز الدوق « مارلبرو » القائد الإنجليزي العظيم الذي ينتسب إليه مستر تشرشل وكان النصر حليفه في مواقع عدة — فوقف لويس الرابع عشر في النهاية عند حده بمقتضى معاهدة أترخت سنة ١٧١٣ .

وفي أوائل القرن التاسع عشر حين كان نابليون بونابرت مسيطراً بنفوذه على جزء عظيم في أوروبا لم تنفك التحالفات بزعامة إنجلترا لمحاربة نابليون فترة بعد أخرى حتى دحر في النهاية .

ثم جاءت الفترة بين مؤتمر فيينا ١٨١٥ وقيام الحرب العالمية الأولى ، وفي أثناءها شغلت أوروبا بالحركات الدستورية والقومية في الشعوب المختلفة فلم يظهر أثر ما لمبدأ التوازن الدولي ، اللهم إلا في الفترة التي نشأت فيها المحالفة الثلاثية بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا من جهة ، والاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا وروسيا من جهة أخرى ؛ وكان السبب الأول في تكوين هذه المحالفات هو الرغبة في حفظ التوازن الدولي بين الجانبين . وبخيل إلينا أنه لو لم تتردد إنجلترا في إعلان موقفها صراحة قبل الحرب العالمية الأولى بوقوفها موقف المنتظر حتى تخرق ألمانيا حيدها بلجيكا قبل أن تعلن الحرب عليها ، ولو أن الولايات المتحدة قررت صراحة منذ بداية تلك الحرب عزمها على الدخول في صفوف الحلفاء — لو أن هذا وذاك قد كان لأمكن الاحتفاظ بالتوازن الدولي ولترددت ألمانيا طويلا قبل أن تقذف بنفسها في حرب لا يمكن أن تأمن عواقبها .

لذلك يعتبرون قيام الحرب العالمية الأولى إيذانا بفشل مبدأ التوازن الدولي واقتراب عهد جديد من شأنه أن يتطلب مبادئ جديدة ؛ فبعد أن كانت الحروب محلية أو دولية بين دولتين أو أكثر ، وبعد أن كان التوازن السياسي مقصوراً على الدول والأقاليم الأوربية ، تطورت الحرب إلى معركة عالمية يشترك فيها معظم دول العالم المهمة ، وامتدت ميادينها حتى وصلت إلى جميع أصقاع العالم براً وبحراً وجواً ، وأصبح الخطر الذي يواجهه العالم لا يكفي في رده حلف أو عصبة ، بل لا بد من اتحاد عالمي ترهبه الدول المعتدية من جهة ويقدر على أن يصون السلام العام بين الدول جميعاً من جهة أخرى .

ولا يتسرب إلى الذهن أننا نعتقد بإمكان تكوين اتحاد عالمي الآن ، أو أن أسباب الحروب ستزول من العالم بمجرد تكوين هذا الاتحاد ؛ لا ، إنما قصدنا

بهذا البحث أن نسوق إلى القارئ الشواهد التي تثبت أن الحرب ليست شيئاً طبيعياً محتوماً وإنما هو مرض دولي مزمن في طاقة البشر استئصال شأفته كما استأصل شأفة أمراض بشرية واجتماعية غيره كانت مستعصية على العالم حتى كشف الخبراء عن أسبابها وجراثيمها ومدى انتشارها فقضوا عليها أو كادوا، بالحيلة أولاً وبالعلاج مرة وبالتطعيم تارة وبالجراحات والبتة أحياناً .

فداء الحرب قد يبقّى إلى ما شاء الله ، وقد تنتشر عدواه فترات طويلة أو قصيرة في مختلف الأرجاء ، ولكن مادام الحكماء من يوالون الاستشارة وعيادة المريض فأخلق بالداء أن يزول إذا اقتلعت أسبابه وعولجت أعراضه وأبيدت من العالم جراثيمه .

الفصل الثاني

كيف تعاونت الدول

إن ارتباط شعوب العالم المتمدين في نظام سياسى واحد فكرة قديمة يمكن تتبع أصولها في عصور التاريخ المختلفة ؛ ففي العصور القديمة كانت غزوات كبار الفاتحين ، كالإسكندر وقيصر ، ترمى إلى نشر النفوذ الإغريقى والرومانى على التوالي بين الشعوب المعروفة في ذلك الوقت .

وكان النظام الذى أقامته الدولة الرومانية وساد العالم عدة قرون في ظلال السلم أعمق أثراً وأبقى على الزمن من أى نظام مضى أو جاء بعده إلى الآن ؛ فقد كان في الدولة الرومانية أقوام يختلفون جنساً ولغةً وديناً وعادة ، فكانت رومة تغرس فيهم جميعاً حضارتها وتنشر ثقافتها وتمد طرقها وتقيم جسورها وتطبق قانونها وتمنحهم جميعاً حقوقاً مثل حقوق أهل رومة نفسها . وكان من أثر هذه الطمأنينة بين الشعوب أن اصطنعوا للسلام صفة ينعتونه بها وصلة ينتسب إليها ، فأطلقوا عليه « سلام رومة » .

غير أن هذا الارتباط كان أساسه القوة ، وقد قام مستنداً إلى حراب الفيالق الرومانية التى كانت تحافظ على تخوم الدولة وتمنع عنها غارات أعدائها خارج الحدود . فلما ضعف السند وبدا للناس أثر انهزام الجيوش الرومانية على أيدي القبائل المتبربرة التى أغارت على أملاك الدولة في أوروبا ، انهيار البناء من جميع

أركانه وعم الاضطراب وانحلت الدولة العالمية التي كانت ملء أسماع الناس وأبصارهم ، إلى أقطاع صغيرة وفرق مختلفة أهواؤها .

وهذا مصير كل نظام يقوم على مجرد القوة والجبروت مهما تباعدت العصور وتباينت الأساليب .

جاءت بعد ذلك فترة العصور المظلمة أو العصر الوسيط ، وهو على رغم ما ظهر فيه من انحلال في جميع المرافق السياسية والاقتصادية والثقافية في أوربا ، قد أضاء بنور الأديان الإلهية التي دعت الناس إلى عبادة الله تعالى وأشاعت بينهم روح الإخاء والمحبة والمساواة . وكان الرسل الكرام في نشر دعوتهم يؤمرون بتعميم رسالتهم وإذاعة مبادئ الرحمة والعدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم . جاء على لسان الرسول الأمين :

« أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد : كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، « ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » .

وقال الله تعالى في كتابه الكريم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . وبذلك أثبت الإسلام تسامحاً في الدين وإخاء بين الأسر والقبائل ومساواة بين الشعوب وسجل ذلك كله بأن جعل أمر الناس شوري بينهم .

وجاء في العهد القديم :

« واقطع لهم عهداً في ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض ، واكسر القوس والسيف والحراب من الأرض واجعلهم يضطجعون آمنين » .

وجاء أيضاً : « فيطبعون سيوفهم سككاً ، ورماحهم مناجل ، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » .

أثر الكنيسة :

وكانت الكنيسة المسيحية قد جذبت إليها أباطرة الرومان ، فعمد قسطنطين امبراطور الرومان مسيحياً سنة ٣٢٠ م . ومنذ ذلك الوقت اتحدت المسيحية والإمبراطورية ، فلما سقطت الإمبراطورية الغربية قامت الكنيسة تؤدي للشعوب ما كانت روما تؤديه من رعاية وزعامة ، وورثت الكنيسة عن الدولة الرومانية صفتها العامة فصارت تعرف بالكاتوليكية ، أى الجامعة ، وأصبح لبابا روما سلطان روحى أخذ ينمو ويقوى بدخول القبائل المتبربرة فى الدين المسيحى ، حتى شمل جميع ملوك أوربا وأمرائها ، وصار البابا هو الهيئة العليا التى يحتكم إليها جميع الملوك والأمراء فى مشاكلهم وخلافاتهم ، حتى الإمبراطور نفسه لما أعيد إنشاء الدولة الرومانية المقدسة فى عهد شرلمان فى آخر القرن الثامن الميلادى واجتمعت له أسباب السلطة الزمنية أو السياسية — كان يدين بتاجه إلى البابا ، ومن عصاه منهم فإن البابا لم يكن غفوراً ولا رحماً . ولا يزال التاريخ يذكر كيف وقف الإمبراطور هنرى الرابع (١٠٧٧ م) على أبواب قصر كانوسا ثلاثة أيام ملتمساً أن يأذن له البابا جريجورى السابع فى المثول بين يديه خاشعاً تائباً نادماً على ما فرط

منه في حق البابوية ؛ ومع أن هنرى قد انتقم لنفسه من البابا أخيراً فإن إذلال الإمبراطورية في « كانوسا » كان أسطع دليل على ما كان للبابا في ذلك الوقت من سلطان روحى وسياسى فى العالم المسيحى فى أوربا .

وقد كان لاشتراك الشعوب الأوروبية فى العقيدة المسيحية وسير الناس فى جميع الأصقاع على نهج مسيحى واحد ، أثر ظاهر فى ارتباطهم معاً فى أثناء الحرب الصليبية على رغم الحواجز الطبيعية والمسافات الشاسعة التى كانت تفصل بعضهم عن بعض . والحق أن ارتباط الشعوب الأوروبية فى أثناء الفترة التى سيطرت فيها الكنيسة والبابوية يعتبر أقرب النظم إلى فكرة التعاون الحديثة بين الدول .

غير أن البابوية ما لبثت أن انغمست فى الماديات وانحرفت عن طريق التقوى والصالح ، فقامت حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر بزعامة لوتر وانقسمت الكنيسة ودب الخلاف بين المسيحيين وانفرط عقد ذلك الارتباط السياسى والروحى الذى ساد العصور الوسطى فترة من الزمن . وكانت الروح الوطنية والقومية قد أخذت تشتد وتنمو ، فظهرت المدن والثغور وتكونت إمارات ودويلات ، ثم تألفت من هذه الإمارات ممالك أخذت تعز كل منها باستقلالها وتغفر باتساع رقعتها ، ونشأت من ذلك حروب متوالية كان سببها الانقسام الدينى أولاً ثم الرغبة فى الاستعمار والسيطرة ، واستمرت الحال كذلك إلى أن قامت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر .

المشروعات النظرية :

على أنه على رغم الحروب المتعاقبة التى اشتركت فيها دول أوربا فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تكن تلك الفترة خلواً من المشروعات النظرية

والآراء السياسية التي كانت ترمى إلى تحقيق السلام وتكوين اتحاد عام يشمل الدول المختلفة . وأول هذه المشروعات جادت به قريحة الوزير الفرنسى الشهير «دوق دى سلى» Sully الذى توفى سنة ١٦٤٠ وكان وزيراً لهنرى الرابع ملك فرنسا ويعرف اقتراحه «بالمشروع العظيم» وفيه يقترح «سلى» تكوين اتحاد مسيحي من دول أوروبا تشرف عليه هيئة عليا تقوم بتسوية المشاكل التي تنشأ بين الدول ويخشى منها على السلام، وقد قسم الدول إلى مجموعات متجانسة ، فجعل مجموعة من الدول الملكية مثل إنجلترا وأسبانيا وفرنسا ، وأخرى من الدول الجمهورية مثل سويسرا والبندقية ، وثالثة من الدول الملكية غير الوراثةية مثل بولنده والأملاك البابوية والإمبراطورية .

وفى هذا الوقت أيضاً ظهر كتاب المشرع الهولندى «جروتيس Grotius» عن القانون فى الحرب ، والسلم وأهمية هذا الكتاب أنه أول محاولة لدرس الصلات الدولية وتنظيم العلاقات بين الأمم بواسطة القانون .

ثم ظهر «وليم بن» Penn الإنجليزى الذى تزعم عهد «الإخوة» Quakers وأنشأ مستعمرة «بنسلفانيا» فى أمريكا ووضع العلاقات بينها وبين الهنود الحمر على أساس من التعاون والسلام . وفى سنة ١٦٩٣ ظهرت رسالته «فى سبيل السلام الحاضر والمستقبل فى أوروبا» وهى رسالة أسامها مشروع الوزير الفرنسى سلى ، وقد اقترح بن إنشاء برلمان أو «ديايط» يجتمع فيه مندوبون عن دول أوروبا فى فترات معينة لبحث جميع المشاكل التي يتعذر حلها بالطرق الودية ، فإذا امتنعت دولة عن قبول حكم هذا البرلمان أو حاولت بالحرب تنفيذ إرادتها فإن الدول الأخرى تتحد معاً لقمعها وتعويض الدولة المعتدى عليها ، وهذه الطريقة يسان السلام بين دول أوروبا .

ومن طريف ما اقترحه بن عند بحث التفصيلات الخاصة بتنفيذ مشروعه أن يجتمع البرلمان في ردهة مستديرة الشكل لها أبواب عدة يدخل منها ملوك ورؤساء الدول فرادى ويخرجون دون أن تحتك أكتافهم وتمس كرامتهم بتفضيل واحد على الآخر !

ومن الكتاب السياسيين الذين عالجوا موضوع التعاون السياسى فى أواخر القرن الثامن عشر الفيلسوف الإنجليزى «جريمى بنتام» Bentham (توفى سنة ١٨٣٢) وقد بنى مشروعه على أساسين من الأهمية بمكان، وهما تخفيض التسليح بالنسبة إلى جميع الدول، والثانى تحرير المستعمرات، وأشار فى مشروعه إلى ضرورة تكوين محكمة دولية تنظر فى تسوية جميع المشكلات والمنازعات التى تنشأ بين الدول بشرط حظر المعاهدات السرية وتأمين حرية الصحافة، ولم يقترح عقوبات توقع على الدولة المتمردة سوى طردها خارج نطاق الدول ووضعها تحت نعمة المجتمع. وفى سنة ١٧٩٥ نشر الفيلسوف الألمانى «كانت» Kant كتابه عن السلام الدائم وفيه يقول: «أن الطبيعة البشرية ستسوق الناس بسبب ما يعانونه من ويلات الحرب وتقلع عبء التسليح الذى تشقى به الأمم حتى فى زمن السلم، إلى محاولة اتباع ما يملكه العقل مترددين أولاً ثم مدفوعين فى النهاية بالرغبة فى الخلاص من حياة همجية تسير على غير قانون وينخرطون فى سلك نظام كالعصبة تجذب فيه كل دولة حتى الصغيرة منها ما ترجوه من أمن وطمأنينة تستمدها من أرادة المجموع لا من قوتها» واشترط «كانت» شرطين للقبول فى هذه الجماعة: الأول أن تكون الدولة جمهورية بمعنى أن يكون نظامها دستورياً، والثانى ألا تتدخل الدول فى السياسة الداخلية للأمم.

غير أن جميع هذه الآراء والمشروعات لم تحل دون قيام الحرب التى لم تقتصر

على أوروبا وحدها بل تعدتها إلى المستعمرات الأمريكية والآسيوية في عرض البحار، أوسبب ذلك أن الأفكار في أوروبا لم تكن قد استعدت بعد لقبول فكرة التعاون والاتحاد، ذلك لأن دولها كانت حديثة عهد بالاستقلال شديدة الحرص عليه ولا تقبل أن تتنازل عن شيء من سيادتها في سبيل تكوين اتحاد عام يكون له عليها حق ما؛ وبذلك انقضى القرن الثامن عشر وفكرة التعاون الدولي لم تعد أفكار الفلاسفة وصفحات الكتب والرسائل ولم تخرج عن نطاق أوروبا وحدها.

المؤتمر الأوربي أو « الكنفرت » :

وأول مظهر من مظاهر التعاون السياسي في القرن التاسع عشر محاولة نابليون بونابرت تجديد عهد الإسكندر وقيصر وتأليف نظام أوربي عام تخضع له شعوب أوروبا وترتبط أجزاؤه بعضها ببعض بقوة السيف أو بأواصر القرابة والنسب، وقد مهد الغرضه هذا بزواجه من ابنة إمبراطور النمسا سنة ١٨١٠، وإعلان إخوته وأنسابه وقواده ملوكاً على دول أوروبا المختلفة.

غير أن بقاء إنجلترا بمعزل عن النظام الأوربي الذي أقامه نابليون في القارة واستمرارها على مناوئته، وخروج روسيا عليه بعد اتحادها معه، وظهور روح القومية بين الشعوب التي أخضعها نابليون بالقوة — كل ذلك أدى إلى تألب الدول ضده والقضاء عليه وعلى نظامه في النهاية.

ولما أعادوا للمسكية في فرنسا عقد الحلفاء معاهدة باريس في ١٨١٤ وأعلنوا فيها عزمهم على تقرير سلام دائم بين الدول يقوم على أساس من التوازن العادل بين القوى المختلفة.

ومع أن الحلفاء الأربعة إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا قد جعلوا لأنفسهم حق التسويات الإقليمية فإنهم دعوا جميع الحكومات والإمارات التي اشتركت في الحرب إلى مؤتمر يعقد في فيينا لإقرار هذه التسويات، لذلك كان اجتماع المؤتمر في فيينا سنة ١٨١٥ أول تمثيل رسمي للوحدة الأوروبية في العصور الحديثة.

ولما نعى إلى ممثلي الأمم في المؤتمر أن نابليون قد غادر منفاه في جزيرة « البا » وعاد إلى فرنسا ليواصل كفاحه ضد الحلفاء أخذ الممثلون السياسيون الموائيق على أنفسهم أن يصونوا التسويات الأخيرة ضد كل مهاجم مهما يكن.

ويعتبر هذا المؤتمر الأوربي أول محاولة جدية في تنفيذ فكرة التعاون بين الدول في الأزمنة الحديثة. وكانت الفكرة من وحي قيصر روسيا إسكندر الأول، وكان رجلا ذا مسحة دينية تستهويه النظريات والمشروعات الإنسانية العامة، فحاط المؤتمر ومشروع الاتحاد الأوربي بهالة من الإخاء والمحبة والعاطفة المسيحية دعت بعضهم إلى تسمية هذا الاتحاد « بالحالفة المقدسة ».

وقد أرادت الدول من المؤتمر تأدية غرضين : الأول مستمد من السياسة التقليدية الماضية التي يعنىها حفظ التوازن الدولي وذلك بصيانة التسويات الإقليمية التي وافق عليها المؤتمر في فيينا ضد الأخطار التي كانت تهددها ولا سيما من جانب فرنسا التي قرر الحلفاء وضع جيش للاحتلال بها وتأليف مؤتمر من سفراء الدول يجتمع أسبوعياً برئاسة ولنجبتون بطل واترلو لمراقبة الحال فيها ؛ والغرض الثاني يعتبر فتحاً جديداً في تاريخ التعاون الدولي، إذا اتفقت الدول فيما بينها على أن يجتمع مندوبون عنها في أماكن يتفق عليها لاتخاذ الوسائل التي تكفل استقرار السلام وسعادة الشعوب. ويجب أن نقرر هنا أن المقصود بسعادة الشعوب قمع الثورات

التي قد تقوم ضد الملوك كما قامت الثورة الفرنسية من قبل ضد الملكية في فرنسا »
ولذلك وقع في وهم الفرنسيين أن معاهدات سنة ١٨١٥ ليس الغرض منها إلا
التضييق على فرنسا وتشديد المراقبة عليها ، فأضرموا السخط والعداء لهذه المعاهدات
وجعلوا يعملون سراً وعلانية للخلاص من ربتها .

فأما فكرة اجتماع الدول الكبرى على قدم المساواة للمشاورة في الوسائل
الناجعة لمنع الحرب واستقرار السلم فكانت ترمى إلى غرض نبيل اندفعت نحوه
الدول الكبرى لأول مرة في تاريخها الحديث ، وأما فكرة قمع الثورات بالتدخل
في الشؤون الداخلية الصرفة للأمم وبخاصة الصغيرة منها فكانت مشار خلاف
عظيم افترقت من أجله أوروبا فريقين ، فكانت النمسا وبروسيا ومعها روسيا في
الغالب تمثل الروح الرجعية ، وطبيعي أن تكون الدول التي أذل نابليون تيجانها
ووطئ أراضها أكثر خوفاً وأحوج إلى الحيلة والتأمين من غيرها ؛ أما إنجلترا
ومعها فرنسا أحياناً فكانت تأبى على المؤتمر تدخله في الشؤون الداخلية للأمم ،
ولذلك التزمت نحو المؤتمر سياسة خاصة ، فكانت تعلن تارة عزلتها عنه وتكتفي
بالاشتراك الأسمى وبمجرد حضور الجلسات ، وتارة تشترك اشتراكاً عملياً عند
ما تلمح مصلحتها في هذا التدخل .

على أن المؤتمر أو الكنسرت Concert ما لبث أن أصبح أداة استبدادية
في يد مترنخ — الوزير النمساوي الشهير الذي اقترنت باسمه سياسة النصف الأول
من القرن التاسع عشر — يستخدمه في قمع الثورات وإرهاب الشعوب الصغيرة
ومناهضة مبادئ الحرية والوطنية في أوروبا عامة . ولا عجب فقد كان مترنخ
يعتقد أن السلام العام لا يمكن أن يسود في أوروبا دولة تحاول إحداث

انقلاب في نظام حكمها أو تعديلاً في التسويات الإقليمية التي ضمنتها معاهدات سنة ١٨١٥ .

وأول اجتماع للاتحاد الأوربي بعد مؤتمر فيينا كان في أكس لاشابل سنة ١٨١٨ حين عرض ولنجتون على الدول إنهاء احتلال فرنسا وقبولها في مجمع الدول مع الحيلة سرىا ضد قيام الثورة فيها ، ثم توات اجتماعات الاتحاد الأوربي في كارلسباد ١٨١٩ لتشديد المراقبة على الأحرار في جامعات المانيا ومنع قيام المظاهرات والفتن فيها . وفي تريلو سنة ١٨٢٠ وليباخ سنة ١٨٢١ لمنع الثورة في مملكة نابولي ، وفي فيرونا لمنع الثورة في أسبانيا .

وكانت الدول في كل هذه المؤتمرات ترمى إلى شيء واحد هو صون السلام فيما بينها ومنع الثورات التي كانت تقوم إما لقلب نظام الحكم إلى نظام دستوري أو لتكوين الوحدات الوطنية ، وفي كلتا الحالين كانت دول وسط أوروبا تخشى على أمنها وسلامتها فتقرر فيما بينها ضرورة التدخل لقمع هذه الثورات وإعادة الحقوق الشرعية إلى أصحابها ، إما بالطرق السلمية أو بالقوة سواء أطلب منها ذلك أم لم يطلب ، فكانها نصبت نفسها « بوليسا » يحفظ النظام العام في أوروبا ويصون التسويات الإقليمية كما رسمتها المعاهدات في سنة ١٨١٥ ويحمى الملوك أو أصحاب الحقوق الشرعية ضد من تحدتهم أنفسهم بالثورة عليهم . ولما كان الثوار عادة يلجئون إلى ضم طائفة إليهم من ضباط الجيوش ومن الجنود كانت الثورات عادة مصحوبة بالعنف والتدمير وإراقة الدماء

اعلموه مبدأ منرو في أمريكا :

وقد بدأ الخلاف يدب بين دول أوربا عندما بدأت إنجلترا في مؤتمر ليباخ إلى الاحتجاج على تدخل الدول في الشؤون الداخلية للشعوب الصغيرة ، فلما قامت الثورة في أسبانيا ضد ملكها فردينند السابع وقرر المؤتمر في فيرونا تدخل فرنسا لقمع الثورة فيها ، أعلنت إنجلترا بلسان وزير خارجيتها « كاننج » معارضتها لهذا القرار ؛ ولما كانت مستعمرات أسبانيا في أمريكا داخلة أيضاً في نطاق الثورة خشيت كل من إنجلترا والولايات المتحدة أن يمتد أثر قرار مؤتمر فيرونا إلى أمريكا ، ولكل منهما في هذه المستعمرات مصالح تجارية حيوية ؛ لذلك أعلن كاننج صراحة أن أى تدخل من جانب الدول في المستعمرات الإسبانية تعتبره إنجلترا عملاً عدائياً يدعو إلى الحرب .

أما الولايات المتحدة فالتحذت من هذا الحادث سبباً دعاها إلى وضع مبدأ سياسى عظيم الخطر بالنسبة إلى أمريكا ، وهو المبدأ المعروف باسم رئيس الولايات المتحدة إذ ذاك جيمس منرو Monroe (توفى سنة ١٨٣١ م) وينص هذا التصريح الذى أصدره الرئيس فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٢٣ على « أن الأقاليم الأمريكية بفضل ما وصلت إليه بجهود أبنائها من استقلال وحرية لم تعد مجالاً للتدخل أو للاستعمار بواسطة أية دولة أوروبية ، وأن أى تدخل من جانب أية دولة أوروبية في شؤون الأقاليم التى كانت تابعة لإحدى الدول وأعلنت استقلالها عنها تعتبره الولايات المتحدة عملاً غير ودى موجهاً ضدها ؛ إذ من شأن هذا التدخل أن يؤدى إلى تهديد مصالح الولايات المتحدة واضطراب الأمن والسكينة في البلاد » . وأعقب ذلك اعتراف إنجلترا باستقلال المستعمرات الإسبانية ١٨٢٤ وعلى ذلك وقف تدخل الاتحاد الأوروبى في شؤون أمريكا .

ومع أن تصريح « منرو » لم تكن له صفة المعاهدة الدولية فإنه طبع سياسة الولايات المتحدة بطابع العزلة عن أوروبا ومنع الدول من التدخل في شئون أمريكا الشمالية والجنوبية وجعل شئون الجمهوريات الأمريكية وسائر أقسامها من اختصاص الولايات المتحدة أولاً دون غيرها من سائر الدول .

وعلى ذلك يعتبر تصريح منرو مبدأ سياسياً هاماً ساعد على الاحتفاظ بالسلام العام بين جمهوريات أمريكا وأقسامها المختلفة وبينها وبين أوروبا ؛ غير أن الشعوب الأمريكية الناشئة الحديثة العهد بالانفصال عن اسبانيا أو البرتغال قد أفسدت ما كسبته من تأمين السلام بينها وبين غيرها ، فكثرت فيها الثورات والحروب الداخلية كثرة اشتهرت بها وكان لها أثرها البارز في تاريخ تلك البلاد .

المؤتمر والثورة الأغريقية :

وبينما كانت الدول مجتمعة في نيباخ وفي فيرونا للنظر في قمع الثورات التي قامت ضد نابلي وبيدمنت واسبانيا نشبت الثورة الأغريقية ضد سلطان تركيا فتعرض المؤتمر الأوروبي لحنة جديدة خطيرة في نتائجها ذلك أن الدول التي اجتمعت في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ لم تتعرض للمسألة الشرقية ولم تدع سلطان تركيا لحضور المؤتمر ، إذ خشى الاسكندر قيصر روسيا وصاحب النفوذ الأول في المؤتمر أن تفقد روسيا حرية العمل بمفردها في حل المسألة الشرقية لصالحها فعمل على إقصاء المسألة الشرقية عن بحث المؤتمر .

وكان اسكندر الأول رجلاً شاذاً اعتقد منذ كارثة موسكو أنه مرسل من لدن الله تعالى للقضاء على قوة نابليون وجعل منذ ذلك الوقت يسيطر على اتجاهات السياسة الأوروبية العامة ، غير أن شذوذه دعاه إلى التذبذب في سياسته ، فتارة يحبذ

الأفكار الدستورية ويعمل على تأييدها في بولنדה ، وحينما يناصر السياسة الرجعية ويعضد مترنخ في مشروعاته الرجعية في كل مكان .

أما سياسته نحو تركيا فكانت وفق سياسة قياصرة الروس منذ بطرس الأكبر وكرتينه وهي التعجيل باضعاف الدولة العثمانية حتى تحقق الروسيا أغراضها فيها .

وقد هال الباب العالي أن يرى قيصر روسيا يقترح تأليف المحالفة المقدسة وفيها ظهرت الدول الأوربية كأنها أسرة واحدة تعمل على سنن الكتاب المقدس ، فادركت تركيا عزلتها عن باقي ممالك أوربا وبانت تتوقع أن ينقلب عليها رعاياها المسيحيون في أوربا بتحريض ومعاوضة جارتها وعدوتها التقليدية روسيا .

فلما قامت حركة الثورة الأغريقية وكانت أمانى الثوار لاتتفق مع المبادئ التي أعلنها مؤتمر الدول بشأن الشعوب التي تشور ضد ملوكها وحكوماتها انتهجت الدول إزاء اليونان سياسة الحيدة المصحوبة بالعطف على الثوار ، وكانت الدول تعلل نفسها بانتصار الثوار في النهاية ؛ اللهم إلا النمسا إذ لم يكن لوزيرها مترنخ سوى سياسة واحدة ، هي سياسة المحافظة على الحالة الراهنة وإخماد الحركات القومية والدستورية واحترام الحقوق الشرعية وأصحابها سواء أكان صاحبها فردينفد السابغ ملك اسبانيا أم محمود الثانى سلطان تركيا .

فلما تخرج مركز اليونانيين بدخول قوات محمد على بلاد المورة إلى جانب السلطان وانهزام الثوار المتلاحق أمام القائد المصرى ابراهيم باشا اجتمعت الدول الثلاث في لندن ١٨٢٧ ولم تشترك النمسا معهم وقرروا فصل اليونان عن تركيا مع بقاء السيادة عليها لتركيا وأن تعلن الهدنة فوراً بين المتحاربين على أساس قبول شروط المعاهدة و إلا تدخلت الدول بالقوة . وكان من نتائج ذلك موقعة «نوارين»

البحرية ثم الحرب الروسية التركية وانهزام تركيا أمام روسيا واضطرارها إلى قبول استقلال اليونان بمقتضى معاهدة أدرنة ١٨٢٩ .

وعلى أثر ذلك تصدع بناء المؤتمر الأوربي وتفككت كلمة الدول وأصبحت كل منها تواصل السياسة التي توافق مصلحتها الخاصة ، ثم جاءت ثورة ١٨٣٠ في فرنسا وما أعقبته في الأراضي المنخفضة وإنجلترا وبولندا وإيطاليا والنمسا ، فشغلت الدول بمصالحها عن النظر في شئون السلام العام ، واستمر الموقف كذلك إلى منتصف القرن التاسع عشر حين قامت ثورة ١٨٤٨ في فرنسا وتجاوبت أصدائها في أوروبا عامة وفي المانيا والنمسا خاصة حيث أردت بمتروخ وبالساسة والنظم الرجعية التي اقترنت باسمه .

مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ :

وفي منتصف القرن التاسع عشر حدث تطور جديد في علاقات الأمم يعود سببه إلى الاختراعات الحديثة التي انتشرت وقتذاك في أنحاء العالم ، مثل السكك الحديدية والسفن التجارية والتلغراف واستخدام الفحم والحديد في الصناعة ، وأحدثت انقلاباً عظيماً ظهر أثره في تقريب المسافات وتوثيق الروابط الاقتصادية والاجتماعية بين الأمم ، وأصبح ما يصيب عضواً في المجتمع تهتزله سائر الأعضاء .

أما التطور السياسي فنشأ على أثر قيام حرب القرم بين روسيا وتركيا ١٨٥٣-١٨٥٦ بسبب دعوى روسيا أن لها حق حماية رعايا السلطان من الأرثوذكس في أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، ولما كانت فرنسا تعتبر نفسها حامية الرعايا الكاثوليك فقد جر النزاع إلى دخول فرنسا ، وكان امبراطورها نابليون الثالث ينقم على قيصر روسيا مخاطبته إياه بصديق بدلاً من أخى ، ويتحين الفرص

لانتقام من روسيا التي كانت من أهم أسباب هزيمة عمه نابليون الأول وسقوط أسرته ، وكانت إنجلترا تتوجس خيفة من روسيا وقواتها وتشك في نياتها ومطامعها في البواغيز والبلقان والبحر الأبيض المتوسط ؛ لذلك ساعد سفيرها بالقسطنطينية الباب العالي على رفض مقترحات روسيا ورحبت إنجلترا بانضمام فرنسا إليها لمساعدة تركيا .

وكانت هذه أول مرة بعد مؤتمر فينا تشتبك فيها الدول الكبرى في حرب أوروبية وأول مرة منذ قرون طويلة تتفق فيها فرنسا وإنجلترا معاً في حرب واحدة ، وبقيت النمسا وبروسيا بعيدتين عن الحرب ولكنهما اشتركتا أولاً لمنع وقوع الحرب ، ثم تدخلت النمسا في إتمام الصلح وكان لها فيه دور هام ؛ واتهم كاثور الوزير الإيطالي الشهير هذه الفرصة للتدخل في الحرب تقرباً من إنجلترا وفرنسا لكي تساعداه عند الحاجة ضد النمسا ولإعلان ما وصلت إليه مملكة بيدمنت وسردانية من قوة وجاه ، وعلى ذلك انضمت سردانية إلى جانب الحلفاء وأرسلت ١٥,٠٠٠ جندي اشتركت في الحرب كما أرسلت مصر ٢٠,٠٠٠ جندي لمساعدة تركيا . وقد نزل الحلفاء في شبه جزيرة القرم بفضل معاضدة الأسطول الإنجليزي وحاصروا سياستبول قاعدة الروس البحرية في البحر الأسود ، واستمرت الحرب إلى أن سقطت هذه القاعدة سنة ١٨٥٥ وهددت النمسا بالدخول إلى جانب الحلفاء إذا استمرت روسيا في عنادها فاضطرت روسيا إلى قبول الصلح ، وبمساعي الامبراطور نابليون الثالث انعقد مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٨٥٦ .

فكرة التوسط طعن الحرب :

وكان مؤتمراً خطيراً اتخذت فيه قرارات خطيرة لضمان السلام والتعاون بين الدول، وأول هذه القرارات قبول تركيا على قدم المساواة في مجموعة الدول الأوربية المسيحية، ولم تكن تركيا قد اشتركت أو دُعيت إلى الاشتراك في مؤتمر فيينا أو المؤتمرات التي تلت، اللهم إلا المؤتمرات الخاصة التي نظرت في شئون تركيا.

وكان من أهم مداولات المؤتمر تلك الرغبة التي أبداهها لورد «كلارندون» ممثل إنجلترا في المؤتمر، وكان على صلة بزعماء حركة السلام العام التي ذاع أمرها في ذلك الوقت وانتشرت جمعياتها في أوروبا وأمريكا وكان من أنصارها أمثال فيكتور هوجو Hugo في فرنسا وكبدن Cobden وبريت Bright في إنجلترا، وكان من أهم مبادئهم التي نادوا بها أن تلجأ الدول إذا احتدم بينها النزاع إلى التحكيم بدلاً من الحرب. وقد أبدى كلارندون هذه الرغبة بمناسبة ما أشار به المؤتمر على تركيا أن تلجأ إلى إحدى صديقاتها إذا قام النزاع بينها وبين إحدى الدول وكاد يؤدي إلى الحرب، فقرر المؤتمر «أن ممثلي الحكومات المجتمعين في المؤتمر يعلنون بدون أي تردد رغبتهم بلسان حكوماتهم في أن تلجأ الدول المتعاقدة إذا استحكمت بينها الخلاف إلى دولة صديقة أو محايدة للتوسط بين المتخاصمين في الصلح» وأرادوا أن يجعلوا من هذه المادة قاعدة تسرى على سائر الدول فقالوا إن للدول التي لم تشارك في معاهدة الصلح أن تعلن انضمامها إلى هذه الرغبة.

غير أن هذه المحاولة لم تجد إذ اعتبرت الدول أن هذه مجرد رغبة أو أمنية وليست قراراً ملزماً، وخاصة بعد أن أضافوا إلى تلك الرغبة التحفظ المعروف عن الحكومات، وهو أن إعلان هذه الرغبة لا يؤثر في حرية الدول في التصرف بشأن المسائل الخاصة بالشرف والكرامة الوطنية أو الصالح الحيوية.

ومع أن مبدأ التوسط بين الدول المتخاصمة لم يكن أمراً جديداً فإنه لم يكن هناك ما يلزم الدول المتخاصمة بقبول التوسط ، بل كانت الدول تعتبر التوسط من جانب إحداها تطفلاً وتدخلًا فيما لا يعنيتها ، لذلك كان النص على إقرار هذا المبدأ خطوة هامة في سبيل منع الحرب بين الدول على رغم أننا لا نعرف في الفترة التي سبقت الحرب الكبرى الأولى أن دولة ما طلبت إلى أخرى التوسط بينهما وبين غيرهما لمنع قيام الحرب بينهما .

لذلك لم تعد فكرة التوسط التي جاءت في مؤتمر باريس ولم تغن عن الحرب فتيلًا ، فبعد ثلاث سنوات من توقيع معاهدة باريس نشبت الحرب بين إيطاليا وفرنسا من جهة والنمسا من جهة أخرى ، وهي حرب تحرر إيطاليا التي انتصرت فيها فرنسا ومردينيا على النمسا في موقعة « سلفرينو » سنة ١٨٥٩ وضمت على أثرها لمبارديا إلى بيدمنت وتكونت مملكة إيطاليا الحديثة . ثم ظهرت الروح العسكرية البروسية وأخذت بفضل سياسة بسمرك تشق طريقها بالدم والحديد نحو السيطرة في ألمانيا ثم التفوق في أوروبا ، فخاربت الدانمرك سنة ١٨٦٤ من أجل ضم هلستين إليها وفي سنة ١٨٦٦ حاربت النمسا وهزمتها في موقعة « سادوه » وأخذت منها الزعامة على إمارات ألمانيا وفي سنة ١٨٧٠ حاربت فرنسا وهزمتها وأخذت منها الزعامة الحربية والسياسية في قارة أوروبا . وفي كل هذه الحروب لزمّت بريطانيا الحيدة وكانت حيدتها من أهم العوامل التي ساعدت بروسيا على المضي في سياسة السيطرة والتفوق .

وفي سنة ١٨٧٧ قامت الحرب الروسية التركية من جديد وانهزمت تركيا وكادت روسيا تظفر بتحقيق كل مطامعها في البلقان لولا تدخل الدول واجتماعها في مؤتمر برلين ١٨٧٨ لإعادة بحث المسألة الشرقية . ومع أن المؤتمر لم يؤيد الرغبة

التي أبدت في مؤتمر باريس بشأن توسط الدول لمنع الحروب فإن عدم النص على ما ينقض هذه الرغبة اعتبرها قائمة .

وفي فبراير سنة ١٨٨٥ لما اشتد التنافس والتسابق بين الدول على استعمار أفريقية اجتمعت الدول صاحبات المصالح في أفريقية في مؤتمر خاص ببرلين للاتفاق على توزيع مناطق النفوذ في حوض نهر الكونغو ووضع بعض القواعد التي يجب على الدول مراعاتها في استعمار تلك المناطق ؛ ومما قرره المؤتمر أنه إذا وقع خلاف بين اثنتين من الدول الموقعة على قرارات المؤتمر فعليهما أن تتعهدا بالالتجاء إلى الدول الصديقة للتوسط بينهما قبل أن تستعدا للحرب .

ومع ذلك سرعان ما دب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا بشأن أفريقية وكادت الحرب تنشب بينهما وبين فرنسا وألمانيا ، ولم تر لرغبة التوسط بين المتخاصمين أو لمبدأ التحكيم أى أثر دولي في منع الحروب أو وقف اعتداء الدول القوية على الشعوب الضعيفة ؛ وهكذا تكسرت آمال أنصار التعاون والسلام العام أمام مطامع الدول وشدة حرصها على سيادتها وتوسيع رقعتها على حساب الغير .

التعارف الاجتماعي :

غير أنه في مقابل هذا الإخفاق السياسي في القرن التاسع عشر خضت فكرة التعاون الدولي خطوات واسعة في نواح أخرى لم تكن سياسية حقاً ولكنها كانت تمت إلى السلام العام بصلة دقيقة ؛ ومما يزيد في أهمية هذه الخطوات أنها امتدت واستطالت حتى شملت البلاد المتعدنية في جميع أنحاء العالم ولم تعد مقصورة على أوروبا كما كانت الحال في أوائل القرن التاسع عشر .

وأول مظاهر هذا النشاط السلمي العام إلغاء الرقيق فقد كان في أول القرن التاسع عشر في أمريكا وفي بعض أملاك الدولة البريطانية وفي روسيا وكثير من بلاد آسيا وأفريقية ملايين من الرقيق البشرى وكانت تجارة رابحة إذ كانت الولايات الأمريكية والمستعمرات في حاجة إلى الأيدي العاملة في زراعة القطن والدخان وقصب السكر وفي الصناعات الكبرى فكانت السفن تحمل الرقيق من سواحل أفريقية الغربية والشرقية إلى تلك الأقاليم فيستغله أصحابه استغلالاً قاسياً فظيماً . وقد حرك هذا الإذلال الإنساني نفوس كثير من السياسيين والمفكرين وكان في مقدمة الذين كاثفوا في سبيل تحرير الرقيق «وليم ولبرفورس» Wilberforce (توفي سنة ١٨٣٣) وكان عضواً في البرلمان الإنجليزي فأخذ بحسن سعيه وبلاغة منطقته يحرك العاطفة الإنسانية في نفوس أهل البلاد حتى استطاع أن يحمل الحكومة الإنجليزية على إلغاء تجارة الرقيق أولاً ثم إلغاء الرقيق أصلاً في سنة ١٨٣٣ وقرر البرلمان دفع تعويض لأصحاب الرقيق مقداره ٢٠ مليوناً من الجنيهات الإنجليزية .

وقد حذت معظم الممالك الأوروبية حذو بريطانيا فألغت الرقيق في مستعمراتها وحرر قيصر روسيا إسكندر الثاني رقيق الأراضي في بلاده ١٨٦١ .

وجاء دور تحرير الرقيق في الولايات المتحدة سنة ١٨٦٣ في أثناء الحرب الأهلية التي قامت بين الشمال والجنوب — وكان من أسبابها تمسك الجنوب بنظام الرقيق ورغبته في الانفصال عن الشمال بسبب ذلك — وقد استمر الكفاح الدولي لتحرير الرقيق سنين طويلة إذ كانت مكاسبه تطفئ على مخاطره ولا تزال للرقيق بقية آثار في أفريقية يرجى زوالها قريباً . وقد ساهمت مصر في عهد الخديو إسماعيل بمالها وبدماء أبنائها في مكافحة الرقيق ومحاربة تجارته فأرسلت حملاتها لفتح

وتمدين أواسط أفريقية وعقدت مع بريطانيا في سنة ١٨٧٧ معاهدة لقمع الرقيق في أفريقية تكبدت في سبيل تنفيذها جهداً لم تجزَ عليه إلى الآن .

و إلى جانب إلغاء الرقيق ألغيت القرصنة أو لصووية البحار وكانت فاشية في البحر الأبيض المتوسط حيث اتخذت القرصنة مدينة الجزائر قاعدة لهم فهاجمها الأسطول الإنجليزي ثم استولى عليها الفرنسيون سنة ١٨٣٠ ولم يبق للقرصنة أثر يذكر .

كذلك قرر مؤتمر الدول في باريس سنة ١٨٦٥ إلغاء السفن الحربية الخصوصية التي كان يجهزها ويسلحها أصحابها من الأفراد والشركات باعتراف من الحكومات لخوض غمار الحروب ومباغطة العدو في عرض البحار .

ومن أهم مظاهر النشاط السلمي في تلك الفترة تكوين جمعية الصليب الأحمر لتضميد جراح الإنسانية التي تعذب في الحروب ؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى جهود « فلورنس نيتنجيل » Nightingale الإنجليزية التي التحقت بالحملة الإنجليزية في حرب القرم وكان المرض يعصف بأرواح كثيرين من الجنود الذين لم يألوا ولم يقووا على احتمال زمهرير الشتاء في روسيا فكانت فلورنس تحمل مصباحها وتسعى بين الجنود تأخذ بيدهم وتمسح دموعهم وتجبر كسرهم . فلما انتهت الحرب اجتمعت ١٤ دولة في جنيف سنة ١٨٦٣ بمساعي « هنري ديرانت » Durant السويسري وتكونت جمعية الصليب الأحمر .

وفي هذه الفترة المليئة بنواحي النشاط السلمي تتابعتم المؤتمرات الدولية لبحث مختلف المسائل ، فانعقد مؤتمر في بروكسل سنة ١٨٧٤ للنظر في قوانين الحرب، ومثله في واشنطن للنظر في قوانين البحرية، وفي نفس هذه السنة اجتمع مؤتمر البريد

الدولى فى جنيف، وتكون اتحاد البريد الدولى وأخذت الدول تنضم تبعاً إليه حتى أصبح نظام البريد عالمياً ولاتحاده سلطة لا تقيد بسيادة الحكومات الفردية . وهكذا أخذت المؤتمرات الدولية تنمو من لاشئ فى أول القرن التاسع عشر إلى ٢٩ مؤتمراً من ١٨٤٠ - ١٨٦٠ إلى ٢٤٧ فى ١٨٦٠ - ١٨٨٠ إلى ٨٥١ فى ١٨٨٠ - ١٩٠٠ إلى ٢٣٤٩ فى ١٩٠٠ - ١٩٢٠ ومنذ ١٩٢٠ لا يقل متوسط عدد المؤتمرات الدولية التى كانت تعقد قبل الحرب الحاضرة عن ٢٠٠ إلى ٢٥٠ مؤتمراً فى العام .

الفصل الثالث

السلام المسلح

مؤتمر السلام في لاهاي :

في أغسطس سنة ١٨٩٨ روع وزير المالية في روسيا حين رأى ضخامة الاعتمادات المطلوبة لوزارة الحربية وشكا إلى رئيسه من ضعف مالية البلاد عن تحمل تلك الزيادة المطردة في نفقات التسليح . وقد رؤى بعد عرض الأمر على القيصر نيقولا الثاني أن خير طريق لعلاج هذه الحال أن تتفاهم الدول معاً على ضرورة وضع حد للتسليح وفعلاً أرسل وزير الخارجية « الكونت مورايف » إلى الدول يدعوها باسم القيصر إلى عقد مؤتمر دولي للنظر في مسألتين على جانب خطير من الأهمية : الأولى تخفيف التسليح والثانية تسوية الخلافات بين الدول بالطرق السلمية . وقد اجتمع المؤتمر في مدينة لاهاي من ١٨ مايو إلى ٢٩ يونيه سنة ١٨٩٩ وقد مثلت فيه ٢٦ دولة من بينها الولايات المتحدة والمكسيك من العالم الجديد وكان بذلك أول مؤتمر عالمي دعى لبحث قواعد السلام .

فأما المسألة الأولى الخاصة بتخفيض التسليح فقد عجز المؤتمر عن الوصول إلى حل لهذه المشكلة التي استعصت حتى على مؤتمر نزع السلاح الذي اجتمع بجنيف بعد ثلث قرن في فبراير ١٩٣٢ وظل منعقداً إلى أكتوبر سنة ١٩٣٣ بلا جدوى . وليس غريباً أن تختلف الدول بشأن التسليح لشعب مشاكله وتعتقد أنها . فعلى أي أساس يحدد التسليح ؟ أيكون على أساس مساحة الدول وطول سواحلها ؟

أم على نسبة عدد السكان ؟ أم وفقاً لميزانية الدولة ؟ وهل يباح التسليح للدفاع ؟ ومن الذى يملك الحكم فى مثل هذه المسألة الدقيقة ؟ أو تعتبر العواصم مثلاً من أسلحة الهجوم أم الدفاع ؟ وإذا امتنعت إحدى الدول عن تنفيذ قرار التخفيف فهل تقهر بالقوة على احترام القرار ؟ ومن الذى يقهرها على ذلك ؟

كل هذه أسئلة تتعذر الإجابة عنها بطريقة ترضى الدول التى اعتبرت مسألة التسليح من أهم مظاهر حق السيادة الكاملة لها وليس من سبيل إلى نزولها عن شيء من هذا الحق . لذلك اقتصر ممثلو الدول فى مؤتمر لاهاى على التعبير عن رجائهم بأن تخفض الحكومات ميزانيات الحرب صوتاً لمصالح الشعوب المادية وتحقيقاً لرجاء الإنسانية جمعاء .

أما المسألة الثانية التى نظرها المؤتمر وهى تسوية الخلافات الدولية بالطرق السلمية فقد صادف المؤتمر فيها توفيقاً أدى إلى إنشاء المحكمة الدولية الدائمة للتحكيم سنة ١٨٩٩ . والمعروف أن الخلافات الدولية إنما تنشأ عن المسائل التى يتعذر على الحكومات حلها بالطرق الدبلوماسية المعتادة ، وبعض هذه المسائل مما يعرض عادة أمام محاكم القضاء ومنها ما يتعلق بتنفيذ المعاهدات وتفسير بعض موادها ومنها ما يتعلق بالشرف والكرامة الوطنية كمسائل الحدود والاعتداء على المواطنين . وكانت الدول فى علاج مثل هذه المسائل تلجأ عادة إلى الحرب فلما ظهر أن هناك حكومات لا تود الحرب ولا ترضى به حكماً فى بعض قضاياها لجأت إلى التحكيم . وقد أشرنا فى الفصل الماضى إلى ما جاء على لسان الدول فى مؤتمر صلح باريس سنة ١٨٥٦ بشأن الرغبة فى علاج المشاكل الدولية بالالتجاء إلى التوسط أو التحكيم بدلاً من الحرب ولكنها بقيت مجرد رغبة ولم يتخذ بشأنها قرار .

التوسط والتحكيم :

وفي سنة ١٨٧١ قام نزاع بين بريطانيا والولايات المتحدة بشأن حادث السفينة « ألباما » Alabama في أثناء الحرب الأهلية بين ولايات الشمال والجنوب وكانت إنجلترا قد بنت هذه السفينة وسلحتها للولايات الجنوبية فأخذت تهاجم موانئ ولايات الشمال وتعتدى على سفنها وما زالت تحدث الأضرار للتجارة والأفراد حتى وقعت السفينة في أيدي ولايات الشمال فدمرتها . ولما عقد الصلح بين الشمال والجنوب طالبت الولايات المتحدة إنجلترا بتعويض ما نزل بها من الخسائر بسبب السفينة ألباما واتفق الطرفان في النهاية على أن تقوم ببحث الموضوع لجنة تحكيم مكونة من اثنين يمثلان الطرفين المتخاصمين وثلاثة من دول محايدة وهي إيطاليا وسويسرا والبرازيل فاجتمعت اللجنة في جنيف وقضت بتعويض الولايات المتحدة بمبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات وكانت الولايات المتحدة قد طالبت بتسعة ملايين من قبل وكان هذا التحكيم الدولي أول تجربة دولية أنارت الطريق أمام الدول ومهدت لقبول مبدأ التحكيم الدولي . لذلك كان من أهم قرارات مؤتمر لاهاي تأليف المحكمة الدولية الدائمة للتحكيم في لاهاي فترسل إليها كل دولة مشتركة عدداً من القضاة الممترزين لا يزيد عادة على أربعة وللجانبيين المتخاصمين أن يختار كل منهما قاضيين يجوز أن يكون أحدهما فقط من جنسية الدولة المتخاصمة ويختار القضاة الأربعة قاضياً خامساً يكون منهم بمنزلة الرئيس فيبحث المحكمون موضوع الخلاف ويصدرون حكماً فيه لا يشترط أن يكون ملزماً للدول التي صدر من أجلها التحكيم .

وبلاحظ أن المحكمة لم تكن في الحقيقة دائمة إذ كانت تؤلف في الوقت والساعة بمحض اختيار المتنازعين وفي هذا احترام لسيادة الدولة حتى يكون

الحكم الذى تصدره المحكمة كأنه حكم صدر من محكمة ألفتها الدولة لا من محكمة أجنبية عنها .

ثم انعقد مؤتمر لاهاى الثانى فى سنة ١٩٠٧ بدعوة اسمية من قيصر روسيا أيضاً وكان صاحب فكرته هو « تيودور روزفلت » Roosevelt رئيس الولايات المتحدة إذ ذاك وكان تمثيل هذا المؤتمر للدول أعم وأشمل إذ حضره ممثلون عن ٤٢ دولة وكان مبدأ التحكيم بين الدول قد تأصل نوعاً واقترح بعضهم أن يكون التحكيم إجبارياً وخاصة فى المسائل القانونية والخاصة بتفسير المعاهدات . وكان أهم ما أنجزه مؤتمر لاهاى الثانى أنهم يسروا للدول الالتجاء إلى التحكيم فأعدوا مكتباً دولياً دائماً بلاهاى وأعلنوا الخطوات السلمية التى تتبع لمنع الالتجاء إلى الحرب فأشاروا بضرورة الاستعانة « بالمساعى الودية » أولاً ثم بالتوسط بين المتخاصمين ثم بتكوين لجان للتحقيق ثم التحكيم أخيراً وقرروا ضرورة إرسال إنذار نهائى قبل إعلان الحرب وأن تضى فترة بين قطع العلاقات وبدء الحرب كى يمكن التدخل حتى الساعة الأخيرة لمنع الحرب . ولم تقتصر الدول على استحسان التوسط بين المتخاصمين وعدم اعتباره تطفلاً أو تدخلاً فى شئون الدول بل زادت على ذلك أنها نصحت بأن تتدخل بين المتنازعين دولة أو أكثر من الدول المحايدة التى ليس لها مصلحة خاصة فى النزاع ويكون تدخلها من تلقاء نفسها وبقدر ما تسمح به الظروف للسعى والتوسط فى الصلح حتى ولو كانت الحرب ناشبة فعلاً وليس لأحد الطرفين المتنازعين أن يعد هذا التوسط عملاً عدائياً . وقد خشيت الدول الصغيرة نتائج مثل هذا التوسط غير الإدارى فأعلنت أن التوسط والمساعى الطيبة معناهما إسداء النصح فقط وليس لهما أية قوة ملزمة لأحد الطرفين .

ومن أمثلة التوسط : قيام الولايات المتحدة بإبرام الصلح بين روسيا واليابان

في معاهدة بورتسموث في سنة ١٩٠٥ . وفي سنة ١٩٠٤ تألفت لجنة لتحقيق حادث « شط دوجر » Dogger Bank في بحر الشمال وكان الأسطول الروسي في أثناء مروره من بحر البلطيق إلى بحر الشمال إلى مصيره المحتوم أمام « بور ارثر » قد سمع خطأ أن هناك سفناً للطوربيد أرسلتها اليابان لمهاجمة الأسطول الروسي في أثناء مسيره فاستولى الرعب على ضباط الأسطول فما إن رأوا سفن الصيد الإنجليزية ليلاً حتى ظنوها سفناً يابانية وأخذوا يضربونها بمدافعهم فقتل اثنان وجرح كثيرون ودمرت إحدى السفن فتكونت لجنة للتحقيق بناء على اقتراح فرنسا وقضت اللجنة بأن الروس لم يرتكبوا ذنباً ولكنهم أخطأوا خطأً ذريعاً وحكموا عليهم بتعويض قدره ٦٥٠٠٠ جنيه وهو مبلغ قليل ولكنه عظيم الدلالة لأنه منع وقوع الحرب بين دولتين عظيمتين وأعطى القانون عوضاً عن الحرب منزلة سامية بين الشعوب .

ويجب أن نفرق هنا بين التوسط والتحكيم فالأول إجراء سياسى دبلوماسى ، أما التحكيم فإجراء قانونى قضائى ، وقد بلغ عدد القضايا التى نظرتها محكمة التحكيم الدولية الدائمة إلى ما قبل إعلان الحرب الكبرى الأولى نحو خمس عشرة قضية . ومن الخلافات الدولية التى نجح فيها التوسط وقف الحرب بين تركيا واليونان سنة ١٨٩٩ . ولما توقفت فنزويلا عن الوفاء بالتزاماتها وديونها لبريطانيا وألمانيا وإيطاليا سنة ١٩٠٥ ورفضت قبول التحكيم وهاجمها أسطول مشترك من هذه الدول تدخلت الولايات المتحدة مطالبة بتنفيذ مبدأ « منرو » فسوى النزاع وقررت محكمة التحكيم بلاهاى سنة ١٩٠٧ أن الديون لا تسوغ مهاجمة الدولة للمدينة أو احتلال جزء من أرضها إلا إذا رفضت التحكيم أو تنفيذ الحكم وقررت للدائنين نحو ٧٠٠٠٠٠ جنيه .

وعلى الرغم من تعدد المسائل الدولية التى أمكن تسويتها بالتحكيم فإن إقرار

مبدأى التحكيم والتوسط لم يمنع نشوب الحرب بين روسيا واليابان سنة ١٩٠٤ ولم يمنع احتلال النمسا إقليمى البوسنة والهرسك من تركيا سنة ١٩٠٨ وكانت روسيا تتأهب لدخول الحرب لمنع النمسا من التوغل فى البلقان لولا إعلان ألمانيا أنها على استعداد لمناصرة النمسا . ولما قامت الحرب البلقانية الأولى ١٩١٢ - ١٩١٣ تدخل لورد غراى وزير خارجية بريطانيا فى نهاية الحرب ودعا الدول إلى مؤتمر فى لندن ١٩١٢ .

ومع ذلك سرعان ما قامت الحرب من جديد فى البلقان بين دول البلقان بعضها وبعض ولم يستطع مؤتمر لندن وقفها . ولكى يكون التوسط مجدياً ومؤدياً إلى الغرض الذى قصدت الدول إليه كان ينبغى أن يكون التوسط أو التدخل قبل قيام الحرب لا بعدها وسنرى أنه لما آذنت الحرب الكبرى الأولى بالقيام لم يلق مبدأ التوسط أو مبدأ التحكيم أى استجابة من الدول .

وعلى ذلك تكون النتيجة أن جهود الدول فى القرن التاسع عشر بدأت بالأمانى المسيحية الطيبة التى أعلنها قيصر روسيا اسكندر الأول فى سنة ١٨١٥ ، وأطلق عليها الناس « المحالفة المقدسة » وهى السياسة التى أنتجت المؤتمر الأوروبى « أو الكنسرت » وانتهى القرن بإعلان نفس هذه الرغبات والأمانى الطيبة على أيدى القيصر نقولا الثانى أحد أحفاد الإسكندر حين اقترح عقد مؤتمر لاهائ سنة ١٨٩٩ .

الاتحاد العام للبربر :

وأما فى النواحي غير السياسية فى المواصلات والطب والتشريع الدولى فإن جهود الشعوب مع الحكومات قد أنتجت تعاوناً دولياً يمكن اعتباره أساساً ونموذجاً يحتذى إذا أخذت الدول إلى حالة السلم الطبيعية ويكفى أن ننظر إلى نظام اتحاد البريد العام لندرك أهمية هذه الجهود .

يرجع تكوين هذا الاتحاد إلى سنة ١٨٧٤ حين قامت سويسرا بناء على اقتراح من مدير البريد في ألمانيا بدعوة الدول إلى مؤتمر عقد في برن في سبتمبر سنة ١٨٧٤ ومثلت فيه ٢٢ دولة شملت دول أوروبا والولايات المتحدة ومصر. ويُعد اشتراك مصر في هذا المؤتمر الأول للبريد دلالة على ما وصلت إليه مصر في عهد الخديو إسماعيل من رقي مادي ومكانة دولية ممتازة .

والأساس الذي قام عليه الاتحاد هو اعتبار الدول المشتركة كأنها تكون أقالماً واحداً من حيث شؤون البريد فلا يعترض سيره حواجز جغرافية أو حدود طبيعية أو غيز طبيعية ويعامل البريد الأجنبي معاملة البريد الوطني ويتمتع بجميع وسائل المواصلات الحديثة والسريعة التي تنشأ في الدولة . والأساس الثاني أن تحتفظ كل حكومة بالدخل الذي يصل إليها عن طريق البريد ولا محاسبة بعد ذلك بين الدول والأساس الثالث الاتفاق على حد أقصى للفئات المختلفة .

ومع أن الصفة الأولى للاتحاد كانت أوربية فإنه لم تمض عشر سنوات على تكوين الاتحاد حتى بلغ مجموع الدول المشتركة فيه ٨٦ مصلحة بريد ، وفي سنة ١٩٠٠ وصل عددها ١١٣ وكانت الصين آخر دولة كبرى انضمت إلى الاتحاد في سنة ١٩١٤ . ومنذ سنة ١٨٧٨ أصبح الاتحاد يعرف « بالاتحاد العام للبريد » وهو يضم جميع دول العالم وكل منها يتمتع بحرية كاملة داخل حدوده ، ولكن الدول جميعاً ملزمة بتنفيذ قرارات الاتحاد التي ترمى إلى تعاون الجميع وتوحيد القواعد العامة في جميع الأرجاء ويشرف على التنفيذ مكتب البريد العام في برن . والمؤتمر العام للبريد مصدر جميع القرارات ، ويجتمع المؤتمر مرة كل خمس أو ست سنوات واللغة الفرنسية هي اللغة الوحيدة المستعملة فيه وتتخذ فيه القرارات بالأغلبية والحكومات ملزمة بتنفيذ قراراته مهما بلغ من اعتراضها وإلا تعرضت مصالحها للضرر إذ من الطبيعي أن لا غنى لها عن خدمات البريد .

وإنما للملح في هذا الاتحاد الصورة المثالية التي يجب أن تترسما الدول في اتحادها السياسي بحيث تحتفظ كل منها بحريتها في العمل داخل بلادها وتشترك جميعاً في اتباع قواعد معينة لصالح المجموع وتشرف على هذه القواعد هيئة دائمة تستمد قوتها من الجماعة كلها وكلتها نافذة على الجميع .

نجاح التعاريف الشعبي :

وإنما نجحت الدول في تكوين الاتحاد العام للبريد وقبلت فيه أن تخضع لحكم الأغلبية وأن تتبع قواعد معينة حتى لو كانت مخالفة لرأيها — لأن شئون البريد لا تنطوي على السياسة أو السيطرة السياسية ، فما إن دخلت السياسة فعلا في مد الأسلاك البحرية وفي إنشاء المواصلات اللاسلكية ، حتى تعقدت الأمور وتعذر الاتفاق بين الدول ذلك لأن التلغراف والإذاعة تؤديان للدول خدمات سياسية وحرية فوق الخدمات الاجتماعية ولا سبيل إلى تسامح الدول إذا تناول نشاطها في مضمار السياسة والنفوذ الدولي .

من ذلك نرى أن المؤتمرات الدولية التي تنعقد لمبحث المسائل التي ترتبط بمصالح الجمهور ارتباطاً مباشراً كان يصاحبها في الغالب نجاح وتوفيق عظيمان في ربط أواصر القربى والتفاهم والتجانس بين الدول . أما فيما يخص المسائل التي تنطوي على النفوذ السياسي الدولي فكانت الحكومات تعتبرها من صميم اختصاصها وتأبى أن يكون للشعوب رأي حاسم في توجيهها ، ولذلك كان نصيبها الاخفاق كما أخفق مؤتمر لاهاي الأول والثاني في علاج مشكلة التسليح .

ولو اجتمع ممثلو الشعوب بدلاً من ممثلي وزارات الخارجية لعلاج مثل هذه المشكلة لما ترددوا في إعلان ضرورة التخفيف بكل الوسائل الممكنة . ويلاحظ أن الحكومات ما فتئت إلى الآن تحتفظ بحق الهيئة التنفيذية في إعلان الحرب

والسلم ووضع الشعوب والسلطات الأخرى أمام الأمر الواقع مع أن الدستور في معظم الدول ينص صراحة على ضرورة استفتاء الشعوب قبل الوصول إلى قرار معين في مسائل تعد تافهة إلى جانب تعبئة الأمم وإعداد مواردها لمواجهة الحروب الحديثة .

الاندفاع نحو الحرب :

ومما زاد في خطورة التسليح وشدة التنافس فيه قيامه إلى جانب ظاهرة وطنية استعمارية حادة سادت جميع الدول قبيل الحرب الكبرى الأولى ودفعت بها جميعاً إلى الحرب ، وفي مقدمة هذه الدول ألمانيا التي تبوأَت مقاماً حريزاً ممتازاً في أوربا على أثر انتصارها على فرنسا وجلس على عرشها الأباطور ولیم الثاني الذي تركزت فيه صفات أسرة هوهنزولرن من حيث الطموح الحربي والرغبة في التفوق على سائر الأمم علمياً واقتصادياً وسياسياً . فحاط نفسه بهالة لامعة من بريق سيفه وقعقمة درعه وجعل الشبان ينظرون إليه نظرة الجند إلى «مارس» إله الحرب الذي سيقود الجنس التیوتونی الألماني لا إلى إحراز النصر فحسب بل إلى إخضاع البشر .

في ألمانيا :

ومع أن ألمانيا بعد الحرب السبعينية قد استطاعت بفضل رجالها بسمرك أن تصون السلام وتنهض في ظله الوارف في مختلف نواحي النشاط العلمی والاقتصادي والتجاری فإن ولیم الثاني لما أن خلا له الجو بعد استقالة بسمرك في سنة ١٨٩٠ وبعد أن سار في سياسة التسليح الحربي أعلن في مستهل القرن العشرين أن ألمانيا قد أصبحت بفضل عظیم تجارتها واتساع نفوذها دولة عالمية ذات مصالح حيوية في عرض البحار ، وعلى ذلك وجب أن يكون لها أسطول تجاری

يضارع أكبر أسطول في العالم وهو الأسطول البريطاني ، وكانت ألمانيا قد استردت من إنجلترا في سنة ١٨٩٠ جزيرة هليجولند في بحر الشمال وكانت في يد إنجلترا منذ الحروب النابليونية ، وتم فتح قناة كيل سنة ١٨٩٥ وبذلك أصبح الأسطول الألماني يستطيع الانتقال إلى بحر الشمال دون حاجة إلى مروره في مياه الدنمرك ، وعلى أثر ذلك اتخذت ألمانيا من هليجولند قاعدة بحرية حصينة وأخذت تسليح بحرياً بدرجة فزعت لها إنجلترا فحاولت كسرحدها في سنة ١٩١٣ . حين اقترح تشرشل ، وكان وزيراً للبحرية « إجازة بحرية » مدة سنة تتوقف فيها الحكومتان عن بناء السفن الحربية فرفضت ألمانيا لأنها كانت تسير في التسليح بدرجة تفوق كثيراً نشاط إنجلترا فكان معنى توقفها أن تتأخر عن اللحاق بإنجلترا .

في بريطانيا :

ولم تكن الروح الوطنية الاستعمارية في إنجلترا أقل منها في ألمانيا فقد أوجد « دزرائيلي » الذي توج الملكة فيكتوريا إمبراطورة على الهند سنة ١٨٧٦ روحاً سياسية جديدة اتخذت من الامبراطورية البريطانية ووحدها هدفاً يعمل له الساسة وعملاء عظاماً تشرّب له أعناق الرجال والشبان وبه تعزّز البلاد ؛ وجاء تشمبرلن بعد دزرائيلي فقوى هذه الروح في البلاد وأصبحت مصالح الامبراطورية البريطانية — التي لا تغيب عنها الشمس كما قيل وتغنى به الشعراء في ذلك الوقت — فوق كل اعتبار .

لذلك تمسكت إنجلترا بحقها في تعزيز أسطولها البحري وجعلته ضعف أقوى أسطول بعده في العالم كما تمسكت بحق تفتيش السفن المحايدة في عرض البحار لمنع وصول الذخيرة إلى أعدائها وقت الحرب .

على أنه يجب أن نميز بين الروح الاستعمارية أو الإمبراطورية التي سادت إنجلترا والروح الحربية التي كانت تسود ألمانيا ؛ ففي ألمانيا كانوا يعتقدون أن الحرب هي الحالة الطبيعية للأمم والعلاج الناجع لكثير من المشاكل الاجتماعية وأن السلام العام خرافة وأن الأمة التي تركز إلى السلم أمة مقضى عليها بالذلة والمسكنة ؛ أما في إنجلترا فكانوا ينظرون إلى الحرب كضرورة غير مستحبة يلجأون إليها بحكم الظروف لتحقيق مآربهم فحتى انتهت الحرب وخلوا إلى أنفسهم وسرحوا جيوشهم قالوا إننا نمتت الحرب ولسنا بأهلها مصدقين .

في فرنسا :

كذلك اتجهت فرنسا في سياستها العامة بعد هزيمتها أمام بروسيا في سنة ١٨٧٠ اتجاها استعمارياً تعوض به ما فقدته من المكانة الحربية والسياسية في أوروبا وكان بسمرك أول مساعد لها على انتهاجها هذه السياسة ليلهيها عن سياسة الانتقام من جهة وليلبذر بينها وبين إيطاليا وإنجلترا بذور الشقاق والنزاع وعلى ذلك استطاعت فرنسا أن تبسط حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ وأن تواصل نشاطها الاستعماري في وسط وغرب أفريقيا حتى كادت تشتبك مع إنجلترا في حرب على أثر حادث فاشوده ١٨٩٨ وكان فقد الألزاس واللورين قد غرس في قلوب الفرنسيين حقدًا على ألمانيا لا يمحي فأصبح حب الانتقام ومحو عار ذلك الإذلال القومي أكبر ما تصبو إليه نفوسهم وكانوا يحسون أنه لا طاقة لهم بألمانيا إلا بمحاربة روسيا — تلك الدولة القوية التي تتاخم ألمانيا من الشرق — فتحالفت معها في ١٨٩٥ ولما اشتد الخطر من جانب ألمانيا ازداد التقريب بين فرنسا وإنجلترا وبعد أن كانت روسيا مصدر الخطر للدول الأوروبية وضدها تألبت الدول سنة ١٨٥٢ في حرب القرم — أصبحت ألمانيا مصدر الخطر فبعد أن تم الاتفاق الودي بين فرنسا

وانجلترا سنة ١٩٠٤ اتفقت انجلترا وروسيا ١٩٠٧ وبعد إن كانت انجلترا تعتر بحيدتها وعزلتها عن القارة ولا تريد أن تتقيد بنظام أو سياسة تضطرها إلى التدخل في شئون غيرها تدخلا قد يدعو إلى الحرب — إذا بنا تراها بعد ما رأت رأى العين منافسة كل من ألمانيا والولايات المتحدة لسلطانها البحري — تخرج من عزلتها السياسية فتتفق مع اليابان في سنة ١٩٠٢ لتترك لها حراسة المحيط الباسيفيكي عند الحاجة ثم تتفق مع فرنسا في سنة ١٩٠٤ لتعهد إليها بحراسة البحر الأبيض المتوسط في مقابل قيام الأسطول البريطاني بحراسة سواحل بحر الشمال والمانش والاطلنطى .

في الولايات المتحدة :

أما الولايات المتحدة فإنها مع تمسكها بالتقاليد التي ورثتها عن محررها واشنجتون — وهي أن تتصل تجاريا بدول أوروبا وتبقى بمعزل عن السياسة الأوروبية وهي التقاليد نفسها التي قام عليها مبدأ منرو الشهير — قد جرفها أيضا تيار التسليح والاستعمار إلى درجة ما ؛ وكان على رأسها من سنة ١٩٠١ إلى ١٩٠٨ « تيودور روزفلت » وهو رئيس فذ لا يقل عن وليم الثاني في نخفخته وفي إيمانه بعظمة الولايات المتحدة ؛ فأخذت الولايات المتحدة تبني أسطولها الحربي ، وتوثق صلاتها بجمهورية أمريكا ، وتهتم بحكم جزر القليبين التي آلت إليها بعد حربها مع أسبانيا سنة ١٨٩٨ وتعمل جاهدة على منع دول أوروبا من التدخل في مشروع حفر قناة بناما ليظل مشروعا أمريكياً بحتاً بعد أن أخفق فرديناند دلسبس في تأسيس شركة دولية على غرار شركة قناة السويس .

غير أن الولايات المتحدة لم تكن مسوقة إلى التسليح بعامل الرغبة في الانتقام أو التوسع الإقليمي أو التفوق السياسي وإنما كان كل ما ترمى إليه من التسليح

البحرى هو محافظتها على مكانتها التجارية والبحرية إلى جوار بريطانيا وألمانيا . ولم يكن عامل التنافس بينها وبين اليابان في الباسيفيك قد نما واشتد كما هو الآن . لذلك بقيت الولايات المتحدة بعيدة عن مزلق سياسة المحالفات الأوروبية وموئل الحرية والسلام أمام المواطنين من جميع الدول . ولو لم تستثمرها ألمانيا في الحرب الكبرى الأولى لاحتفظت بحيديتها إلى النهاية ولتغير مصير الحرب لا محالة .

في روسيا :

أما روسيا فإنها على رغم مؤتمري السلام اللذين دعت إليهما وعلى رغم إذلالها وظهور ضعفها في الحرب اليابانية الروسية — كانت تضرر سياسة لا سبيل إلى تحقيقها إلا عن طريق الحرب فالوصول إلى البواغيز والتحكم في ملاحتها ثم السيطرة على شعوب البلقان : أمران يدعوان حتما إلى التسليح والاستعداد الحربى غير أن الشعب الروسى كان يعانى في ذلك الوقت صنوفاً وألواناً من الظلم والفساد على أيدي رجال حكومة القيصر الذين استسلموا للدعة والترف وإلى نوع من الجون الدينى الذى أشاعه الراهب « راسپوتين » فى قصر الكرمات وبذلك تنشى الفساد فى جميع أعمال الحكومة وفى مقدمتها الجيش فلما احتلت النمسا البوسنة والمهرسك فى سنة ١٩٠٨ وهددت بذلك مصالح روسيا فى البلقان حاولت روسيا التدخل حربياً ولكنها لم تستطع المجازفة حين أعلنت ألمانيا وقفها إلى جانب النمسا . وجاءت الحرب الكبرى فأظهرت إفلاس النظام الحكومى القيصرى ومهدت الطريق إلى الثورة البلشفية الكبرى .

في إيطاليا :

أما إيطاليا فكانت حديثة عهد بوحدتها القومية واستقلالها وقد زُين لها أن تتشبه بالدول الأوربية الكبرى وترسم لها سياسة استعمارية تنتهجها فى شمال أفريقيا

وشرقيها فلما انتهت محاولاتها في شرق أفريقية بهزيمة «عدوة» ١٨٩٥ أمام أثيوبيا قنعت بمصوع وإرتريا اللتين كسبتها من أرض السودان بفضل معاونة إنجلترا وأخذت تعد العدة للانتقام «لعدوة» من جهة ولتعويض ما فاتها في شمال أفريقية من جهة أخرى وكانت طرابلس هي الإقليم الوحيد الذي تركته الدول في شمال أفريقية من غير حماية أو احتلال أو استثمار فسطت عليها إيطاليا سنة ١٩١١ واحتلت جزر «الدوديكانيز» وسرعان ما شغلت تركيا بحرب البلقان سنة ١٩١٣ فاضطرت إلى عقد الصلح مع إيطاليا وبه فقدت طرابلس وجزر الدوديكانيز بصفة مؤقتة إلى أن ثبتت قدمها فيها عقب الحرب الكبرى الأولى بمقتضى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣. ومع أن إيطاليا كانت مرتبطة مع ألمانيا والنمسا في محالفة سياسية دفاعية عقدت سنة ١٨٨٢ فإنها كانت تنو إلى الاتفاق مع الحلفاء لتحقيق مطامعها في الترنطينو ودلماسيا وأملاك تركيا وكانت تقف بين المعسكرين لترى أيهما أجدى عليها وأسخر فيما يقدم لها.

من ذلك يتبين أن الدول كانت جميعاً تتبع سياسة الاستعداد للحرب وتترقب وقوعها لا محالة غير أنها لفرط وجلها بما قد تجره الحرب الحديثة من الدمار والهلاك والإخلال بالنظم والأوضاع التي ألفها الناس في سنى السلم التي أعقبت الحرب السبعينية كانت الدول في حالة نفسية عصبية فتارة يدفعها الطمع والإقدام والثقة بالنفس وأخرى تتراجع بعامل الخوف وزعزعة اليقين والشك في النتائج في كل يوم قرار وفي كل ساعة رأى والسلاح في يد كل منها مجرد من غمده يشجذ ويعد للساعة الرهيبة.

وعلى ذلك لم يبق متسع أمامها لاستخدام أية أداة من أدوات السلام التي اصطنعتها الدول منذ ١٨١٥ وباءت جميعاً بالإخفاق المر.

الحرب الكبرى الأولى :

ودقت الساعة الرهيبة في يوم ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ في « سراجيفو » عاصمة البوسنة حين اعتدى طالب صربي على الأرشيذوق « فرانس فردينند » ولي عهد النمسا وزوجته في أثناء زيارة رسمية لهما فقتلها وكان لإمبراطور النمسا الشيخ « فرانس جوزيف » مقام خاص في تقدير ملوك أوربا وحكوماتها وخاصة في نظر إمبراطور ألمانيا لذلك روعت أوربا للحادث وعطفت على النمسا في محنتها حتى أنها لما أرسلت إنذارها النهائي للحرب في ٢٣ يوليه سنة ١٩١٤ لم تتدخل دولة من الدول لنصرة الصرب ضد النمسا حتى روسيا التي كانت تناصر الصربيين لم تجرؤ في أول الأمر على إعلان عطفها على الصرب وكتبت الحكومة الصربية تطلب رأى الدول الصديقة في الإنذار فلم ترد عليها انجلترا ولا فرنسا .

وكان الأمل عظيما في أن ينحصر الخلاف في البلقان بين الصرب والنمسا ويسوى بينهما بالاتفاق أو بالحرب دون أن يجبر ذلك إلى تدخل الدول . ولكن النمسا تشجعت بموقف ألمانيا فتشددت في إنذارها النهائي للصرب ولما لم تجب إلى جميع طلباتها زحفت جيوشها إلى بلغراد في ٢٨ يوليه . وطلبت الصرب المساعدة من روسيا ومنذ ذلك الوقت أفلت زمام الأمور من أيدي المسؤولين وسرعان ما تطورت المفاوضات بين الدول لمنع امتداد الحرب فانقلب المفاوضون إلى محاربين وامتدت السنة الحرب حتى شملت جميع الدول ففي ٣١ يوليه أعلنت روسيا تعبئة جيوشها تعبئة كاملة بعد أن كانت التعبئة جزئية فأبرقت لها ألمانيا في نفس اليوم أن تعدل عن التعبئة في مدى ١٢ ساعة ، فلما انقضى الوقت أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا ثم على فرنسا حليفها ؛ وبقيت انجلترا مترددة على رغم ارتباطها بفرنسا وقد حاول السفير الألماني في لندن أن يدعو انجلترا إلى الحيطة

وعدم التدخل كما كان شأنها في الماضي إزاء المؤتمر الأوربي وإزاء الحرب الروسية النمساوية والحرب الفرنسية الروسية ولكن انجلترا كانت مرتبطة بالمعاهدة مع فرنسا من جهة ، ومن جهة أخرى جاء اختراق ألمانيا لبلجيكا وحيدتها فعدته انجلترا مهدداً لمصالحها ومسوغاً لدخولها في الحرب ؛ فأعلنت الحرب بين ألمانيا وبريطانيا في ليل ٤ أغسطس ١٩١٤ وانضم الأتراك إلى دول الوسط لما آتسوه في ألمانيا والنمسا من عطف على مصالحهم ضد روسيا ودول البلقان ، وانضمت إليهم بلغاريا لتعوض ما خسرت في حرب البلقان .

أما جانب دول الوفاق فجعلت تنضم إلى المتحاربين دولة بعد أخرى حتى لم يبق على الحياد من دول العالم إلا القليل ؛ وهكذا تحولت الحرب لأول مرة في تاريخ البشر إلى حرب عالمية شملت جميع القارات والمحيطات ؛ ولا غرابة في ذلك فقد انكشف العالم وتقاربت المسافات بين أجزائه بفضل الانقلاب الصناعي وتقدم المواصلات ، حتى أصبحت المسافة بين أمريكا وبريطانيا تقطع في مثل الوقت الذي كان يقتضيه السفر قديماً بين بلدة وأخرى في المملكة الواحدة ؛ وبعد أن كانت الجيوش تعد في الماضي بعشرات الآلاف أو بمئات الآلاف على أكبر تقدير — إذ لم يزد جيش نابليون الذي جرده ضد روسيا في أول مرة على ٤٠٠.٠٠٠ ولم يزد جيش ولنجتون وحلفائه في واترلو على ٩٣.٠٠٠ وجيش بلوخر البروسي على ١٢٦.٠٠٠ — إذا بنا نرى الجيوش تؤلف من ملايين الشبان ومعهم المدنيون والنساء معبئين جميعاً لخدمة الجيوش وتغذيتها وتموينها فكأنما الأمم أصبحت في الحرب الحديثة جيوشاً تحت السلاح . ولقد أصاب المدنيين من الخسارة في الحرب العالمية الماضية وفي الحرب العالمية الحالية بصفة خاصة أضعاف ما أصاب المحاربين ويكفي لإدراك مدى خسارة العالم في الحرب الماضية أن تعلم أن مجموع القتلى قد بلغ

تسعة ملايين من الأنفس ولم يقل عدد الجرحى والذين أصيبوا في أجسامهم وصحتهم وأعضائهم عن ٣٠ مليوناً .

كل هذا بالطبع لم يدر بخلد ملايين الشبان الذين انضموا إلى الجيوش المحاربة وكلهم حماسة وآمال بأن هذه الحرب ستقضى على نظرية الحرب نهائياً . ولكن هذه الآمال ما لبثت أن تحطمت بشدة ما عانوه من ويلات الحرب الحديثة في جحور الخنادق التي حفروها في الميدان الغربي بين بحر المانش وجبال الفوج وصفحوها وأحاطوها بالأسلاك الشائكة وأقاموا فيها كالجردان وسط الوحل والقذارة شهوراً بل سنين مسهدين مذعورين يتخطفهم الموت وتتناثر أشلاؤهم بين لحظة وأخرى من جوف الأرض وعلى سطحها وفي فضاء الجو فإذا هم هباء منثور وقد طالت الحرب أكثر من أربع سنين وكانوا يظنونها كالحرب السبعينية سنتهى في عام أو عامين ولولا تدخل الولايات المتحدة ودخولها الحرب في ابريل سنة ١٩١٧ إلى جانب الحلفاء لاستطالت الحرب إلى أكثر من ذلك ولكانت خسارة الإنسانية أشد فداحة وإمعانا .

ولقد كان لدخول الولايات المتحدة الحرب أثر فعال لم يقتصر أثره على المساعدة المادية في المال والرجال والعتاد الذي قدمته للحلفاء بل كان أثره أعظم في تقوية الروح المعنوية بين الحلفاء وإعادة الثقة والإيمان بقضية الحرية والديمقراطية إلى نفوس القوم .

وكانت ألمانيا في بادئ الأمر قد وُظنت نفسها على إمكان تطويق الجيش الفرنسي من ناحية بلجيكا ولكسمبورج فلما وقف القائد الفرنسي جوفر Joffre وقفته الشهيرة عند نهر المارن في ٦ سبتمبر سنة ١٩١٤ واضطر الجيش الألماني إلى الارتداد عن هدفه الأول وهو باريس ، لجأ الجيشان المتحاربان في الغرب إلى الانتظار في الخنادق ، وعندئذ فكر الإنجليز في حملة الدردنيل لإمداد روسيا بالمؤن

والذخيرة من جهة ، ولضم البلقان إلى صفوف الحلفاء ؛ ومع أن الحملة قد باءت بالفشل واضطرت إلى الانسحاب في يناير سنة ١٩١٦ بعد أن فقدت ١٢٠ و ٠٠٠ نفس ، فإن الحلفاء قد استطاعوا أن ينشرو الدعاية بين العرب ضد الأتراك في الشرق وأن يمنّوا روسيا بالقسطنطينية والمضائق بعد الحرب ، حتى تصمد إلى جانب الحلفاء إلى النهاية .

ولكن عناصر الثورة في روسيا كانت تعمل بسرعة وثقة وتتسابق مع جهود الحرب ، فانحصرت الثورة في النهاية ، وتنازل القيصر عن عرشه في ١٥ مارس سنة ١٩١٧ وأعلنت روسيا أنها تريد السلام ولا مطمع لها في أرض أو مال للغير ، وعلى ذلك سرعان ما وقعت معاهدة برست ليتوفسك مع ألمانيا في مارس سنة ١٩١٨ تاركة لها فنلندا واستونيا ولتوانيا وبولندا الروسية .

ولكن دخول الولايات المتحدة قد عوض الحلفاء خيراً من روسيا ، فجعلت أمريكا ترسل الجيوش والدبابات والطائرات وسائر ذخائر الحرب ، وأخذت انجلترا تكافح سلاح الغواصات الذي كاد يشل حركتها ، حتى رجحت كفة الحلفاء في الغرب وأيقن كبار القواد الألمان بالهزيمة في النهاية ، وذاعت بين الجنود والبحارة الألمان أنباء تقدم الحلفاء وتحسن مراكزهم وخيبة أمل الألمان وسوء مصيرهم ، وكان ولسون رئيس الولايات المتحدة قد أعلن نقطه الأربع عشرة وعُرف أمرها في صفوف الألمان ، فنادوا بها وأعلنوا عصيانهم أولاً في ميناء كيل ، ومنها انتشرت في جميع الأنحاء ، فلم ير الأباطور بدءاً من الفرار إلى هولندا ومعه ولي عهده وترك ألمانيا تطلب الهدنة من الحلفاء في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من سنة ١٩١٨ وكانت هذه الهدنة إيذاناً بالسلام وبشرى عهد جديد .

الفصل الرابع

ميثاق وعهد غير مسئول

لما رجحت كفة الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى على أثر دخول الولايات المتحدة أخذت الحكومات تستعد للصالح وتعلن عن أغراضها من الحرب وفي يناير سنة ١٩١٨ أعلن الرئيس ولسون في خطبة له دستور النقاط الأربع عشرة التي اعتبرها بعضهم قواعد للسلم الجديد للعالم . ومع أن الحلفاء لم يعلنوا رسمياً موافقتهم على هذه النقاط كما أنهم لم يتعهدوا بمراعاتها في قرارات المؤتمر فإن اهتمام الشعوب بهذه المبادئ وطلب الألمان الهدنة على أساسها قد جعل لدستور ولسون دوراً عظيماً في جميع أنحاء العالم واعتبره الناس من أهم التعاليم السياسية التي تأثرت بها سياسة الشعوب بعد الحرب ولم يسع الحلفاء بطبيعة الحال سوى الإنصات لهذه المبادئ الجديدة وقبولها شكلاً مع اعتزامهم تفسيرها وتحويلها في الوقت المناسب على حسب ما تمليه مصالحهم الوطنية الخاصة .

وأهم المبادئ الجديدة التي نادى بها ولسون إلغاء المعاهدات السرية بين الدول وحرية البحار وحرية التجارة وتخفيض التسليح وتسوية مسألة المستعمرات وحرية الملاحة في البوغاز وأخيراً النقطة الرابعة عشرة الخاصة بتكوين جمعية للأمم على أساس ميثاق يكون الغرض منه أن تضمن الدول بعضها لبعض استقلالها السياسي وسلامة أراضيها من غير تمييز بين دولة وأخرى كبيرة أو صغيرة .

أما باقي النقاط فخصت للسياسة الإقليمية التي اعتزم الحلفاء تطبيقها فالنقطة السابعة تنص على تحرير بلجيكا والثامنة خاصة بإعادة الإلزام والورين إلى فرنسا

والتاسعة خاصة بتعديل حدود إيطاليا الشمالية وفق مقتضيات الوطنية والعاشرة تنص على الحكم الذاتي للشعوب التي كانت تتكون منها إمبراطورية النمسا والمجر ، والنقطة الحادية عشرة تعد الصرب بمنفذ على البحر ، والثانية عشرة تنص على الحكم الذاتي للشعوب غير التركية التي كانت تحت حكم تركيا ، والثالثة عشرة خاصة بتكوين دولة مستقلة في بولندا .

مبادئ ولسون :

أما السياسة الإقليمية التي لخصها ولسون في هذه النقاط فيلوح أنه كان متفقاً عليها مع الحلفاء ؛ ولذلك كانت موضع التنفيذ في صلح فرساي ، أما المبادئ العامة التي بشر بها ولسون واستهوت عقول البشر فقاموا من كل حذب يطالبون بتطبيقها والأخذ بها ، فإنها ما كادت تصل إلى عتبة المؤتمر وتعرض للفحص والتحليل الدبلوماسي حتى اعتراها الهزال والضعف ، وما زالت تساورها الأسقام ، وتتقسمها العلل حتى لفظت أنفاسها الأخيرة بين يدي ولسون مبدعها وراعيها .

١ — فالنقطة الأولى الخاصة بإلغاء المعاهدات السرية أو الخصوصية وقيام العلاقات الدبلوماسية بين الأمم على أساس من الصراحة والنشر أمام أنظار الجمهور قد نص عليها حقيقة في المادة الثانية عشرة من ميثاق العصبة فخاها أن جميع المعاهدات الدولية يجب أن تسجل في سكرتارية العصبة . ولكن المفاوضات بين الدول ظلت على حالها سرية وخصوصية وبعيدة عن متناول الصحف والرأي العام وما كاد صلح فرساي يبرم بين الدول حتى بدأت التكوينات والتحالفات السياسية بين الدول الصغيرة التي أنشأتها معاهدة الصلح وبين فرنسا التي ظلت متمسكة بسياسة التأمين ضد أعدائها بواسطة التحالفات السياسية حتى بعد قيام نظام عصبة الأمم .

٢ — أما النقطة الثانية التي تقول بأن حرية الملاحة مكفولة للجميع في الحرب وفي السلم إلا إذا كان الحصر البحري نتيجة قرار من هيئة دولية لتنفيذ ميثاق دولي فإنها لم تر النور قط إذ لم ترض عنها إنجلترا فقد كان تفوق إنجلترا البحري يعطيها في زمن الحرب حق مضايقة أعدائها بعدم توصيل المؤن والذخائر التي ترد إليها من الدول المحايدة وغيرها، ولما كان من العسير التفرقة بين السلع الممنوعة التي تساعد العدو على مواصلة الحرب وغيرها، فإن الخطر كان في نظر إنجلترا شاملاً؛ وكانت الولايات المتحدة من أشد المعارضين لإنجلترا في تمسكها بهذا الحق، لما تستهدف له مصالح الدول المحايدة من الخطر والخسارة؛ فلما انضمت الولايات المتحدة إلى جانب الحلفاء، نفذت نظام الحصر البحري بكل شدة ودقة، وكان هذا التضييق من أسباب عصيان الألمان واستسلامهم في النهاية.

ولما كان تقرير مبدأ حرية الملاحة مما يهم الدول في أثناء الحرب بصفة خاصة، إذ لا أثر للمصادرة أو للحصر في أوقات السلم، ولما كانت إنجلترا حريصة على التمسك بهذا الحق لاعتمادها الكلي في موارد غذائها على واردات مستعمراتها والبلاد الأجنبية ولاضطرارها مقابل ذلك أن تصدر مصنوعات إلى الخارج ولأن الوسطة الوحيدة في ربط شتات أجزاء إمبراطوريتها الواسعة هو الأسطول — لم تر الدول في مؤتمر السلم مبرراً لإثارة الخلاف بين بعضها وبعض بسبب النص على هذا المبدأ وعلى ذلك ذهبت النقطة الثانية مع الريح.

٣ — أما النقطة الثالثة الخاصة بإزالة الحواجز الجركية وإقامة المساواة بين الدول من حيث انتفاعها بالظروف التجارية فإن الدول التي تصافرت وتعاونت في أثناء الحرب لتوزيع الخامات وحاجات المعيشة بين بعضها وبعض وفي داخل بلاد كل منها — قد عادت بعد أن وضعت الحرب أوزارها إلى انتهاج السياسة

الاقتصادية البالية التي تقضى بأن تسد كل دولة حاجتها بنفسها وأن تزيد في ميزانها التجارى بمحاولة الإكثار من الصادرات والإقلال من الواردات بقدر ما تستطيع ؛ وعلى ذلك عمدت الدول إلى حماية مصنوعات وتجاراتها بكافة الطرق حتى البلاد التي كانت عريقة في اتباع مبدأ حرية التجارة مثل إنجلترا قد خالفته بعد الحرب الكبرى الأولى وأدخلت نظام الحماية في مصنوعات رئيسية أهمها صناعة السيارات كما أنها حملت ممتلكاتها المستقلة على الأخذ بنظام التفضيل فبعد أن كانت الأملاك المستقلة حرة في تقرير الضرائب الجمركية على واردات جميع الدول ومنها بريطانيا إذا بها تتحول تدريجياً — بفضل سياسة تعديل الضرائب التي أعلنها الوزير البريطاني « يوسف تشمبرلن » في أوائل القرن العشرين وبفضل توثيق الروابط بين بريطانيا وأملاكها الحرة — إلى نظام التفضيل وبمقتضاه تخفف الضرائب أو ترفع نهائياً عن السلع والبضائع التي تتبادلها بريطانيا مع أملاكها الحرة . وكذلك زادت الولايات المتحدة ضرائبها الجمركية بعد الحرب إلى أقصى حد بلغته في تاريخ حماية التجارة .

أما الدول الصغيرة التي نشأت بعد الحرب فإن الشعور الوطنى الجاف فيها قد جعلها أشد تمسكاً من غيرها بسياسة الحماية التجارية . وعلى ذلك تبخرت أيضاً النقطة الثالثة الخاصة بحرية التجارة .

٤ — والآن ننقل إلى النقطة الرابعة الخاصة بتخفيف التسليح إلى درجة لا تتعارض مع تأمين البلاد من الداخل . ويظهر أن الرئيس ولسون قد أضاف « من الداخل » لأنه كان يعتقد أن ميثاق العصبة سيغنى عن التأمين من الخارج ، وفعلاً نص على هذا المبدأ في المادة الثامنة من ميثاق عصبة الأمم ، وطبق المبدأ أولاً على ألمانيا إذ حددت معاهدة الصلح القوات اللازمة لتأمين البلاد بمائة ألف

جندى فيها وألغى نظام الخدمة العسكرية الإجبارية . أما الأسطول الحربى فقد أغرق ولم يبق منه لحراسة سواحل البلاد سوى ٦ سفن حربية كبيرة و ٦ طرادات و ١٢ مدمرة وعدد قليل من السفن الأخرى وألغى سلاح الطيران الحربى وسلاح الغواصات .

وقد اتخذ الحلفاء من هذه المادة مقدمة لتحديد التسليح بين الدول بصفة عامة ؛ وفعلاً تألفت لجنة تحضيرية لدرس الموضوع ثم دعى مؤتمر نزع السلاح فى جنيف ٢ فبراير سنة ١٩٣٢ برئاسة مستر « آرثر هندرسون » Henderson الوزير البريطانى ومن زعماء حزب العمال فيها . وقد اشترك فى المؤتمر من غير أعضاء العصبة روسيا والولايات المتحدة وظهر من الساعة الأولى أن الخلاف عظيم بين الدول فبينما روسيا تقترح نزع السلاح نزاعاً تاماً ترى فرنسا تدافع عن نظرية تأمين نفسها بالتسليح وترى كلا من ألمانيا وإيطاليا تطلبان المساواة مع فرنسا . وعلى ذلك أخفق المؤتمر فى النهاية للأسباب نفسها التى أخفق من أجلها فى الماضى وكان خروج ألمانيا من العصبة سنة ١٩٣٢ وتحررها من التقيد بمواد معاهدة فرساي التى حددت تسليحها ومنعت الخدمة العسكرية الإجبارية من أهم أسباب فشل المؤتمر .

وعلى ذلك لم يكن نصيب النقطة الرابعة من دستور ولسون مجرد الإهمال وإنما جاءت النتيجة على عكس ما أراده ولسون إذ كان تسليح ألمانيا إيذاناً بمسابقة عالمية فى التسليح أعقبتها حرب لم يُصب العالم بمثلاً من قبل .

٥ — أما النقطة الخامسة فتتضمن على تسوية مشكلة المستعمرات تسوية حرة معقولة لا تحيز فيها بحيث يكون أساسها مراعاة صالح أهالى المستعمرات بقدر ما تراعى حقوق الحكومات المستعمرة ، وكما أن النقطة قد أغفلت ذكر

أصحاب هذه المستعمرات كذلك جاء التنفيذ منصباً على مستعمرات ألمانيا فقط وقد احتجت ألمانيا بعد ذلك إذ لم يؤخذ رأيها في هذه التسوية الصريحة المعقولة التي لا تحيز فيها . ولكن الحلفاء خشوا أن تتخذ ألمانيا من هذه المستعمرات — ومعظمها جزر في عرض المحيطات — قواعد حربية وأوكراراً لغواصاتها وأسلحتها السرية وحقولاً تدرب فيها الجنود الملوثة لاستخدامها في الحرب المقبلة وتهديد الأملاك البريطانية ولذلك قرروا حرمانها من المستعمرات . ولما كان الحلفاء قد أعلنوا أنهم لا يرومون من هذه الحرب توسيع ممتلكاتهم أو ضم أراض يسكنها غير مواطنيهم — رأوا أن يداروا أطباعهم وخطهم في آن واحد فاخترعوا في ميثاق العصبة نظام الانتداب وتقسّموا أملاك ألمانيا وتركيا بينهم تحت ستار رقيق من رقابة العصبة بدعوى والعمل على تدريب هذه الشعوب على حكم أنفسهم .

مبدأ تقرير المصير :

أما مبدأ تقرير المصير وهو أهم المبادئ السياسية التي ظهرت بعد الحرب الكبرى الأولى وأعماها أثراً في توجيه سياسة الشعوب فلم تنص عليه النقط الأربع عشرة صراحة وإنما جاء في التصريحات التي أدلى بها «ولسون» بعد ذلك في مناسبات مختلفة . ففي ١١ فبراير سنة ١٩١٨ صرح ولسون أمام المؤتمر الكونجرس الأمريكي بأربع قواعد مهمة للسلام جاء في القاعدة الثانية منها «أن الشعوب والأقاليم لا تنتقل من يد إلى أخرى أو مملكة إلى أخرى كما لو كانت سلعاً تتساوم الدول بشأنها وإنما تقوم التسويات الإقليمية بين الدول على أساس خير السكان أنفسهم ووفق رغباتهم » .

ويجب أن نقرر هنا أن هذا المبدأ قد روعى لدرجة كبيرة عند ما رسم مؤتمر

فرساييل خريطة أوروبا الجديدة فجعل حدود البلاد الجديدة تتفق ومبدأ الوطنية بقدر الإمكان وما أنشئت تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا والمجر ودول البلطيق إلا تطبيقاً لهذا المبدأ . ولكن الدول خالفت هذا المبدأ في أحوال كثيرة تأثرت فيها بعامل الخوف تارة أو بعامل المصلحة الذاتية لبعض الدول الكبرى . ومن أمثلة ذلك تركهم النمسا مستقلة بعد أن قطعوا أوصالها وقصوا أطرافها وأصبحت البقية الباقية من الإمبراطورية العظيمة محصورة في حيز ضيق تحت رحمة إيطاليا ولو استفتوا السكان لاختاروا الانضمام إلى المانيا بجامعة الدم والجنس واللغة والتاريخ . كذلك أقام الحلفاء دولة العرب داخل جزيرة العرب وحرموا العرب في فلسطين وسوريا وشرق الأردن والعراق من الاستقلال كما تركت مصر تحت حماية إنجلترا غصباً ومن غير أخذ رأي أهلها، وضمت جزر الدوديكانيز إلى إيطاليا وغالبية سكانها من الإغريق . وضم السودان من الألمان إلى جمهورية تشيكوسلوفاكيا الجديدة كما أعطوا البولنديين ممراً داخل بروسيا الشرقية حتى تتصل بولندا ببحر البلطيق وتكون ميناء دانزج تحت إشراف العصبة مع أن أكثريتها من الألمان ؛ كل هذه التسويات وغيرها جاءت مخالفة لمبدأ تقرير المصير الذي نادى به ولسون وانطوت على بذور الشقاق والعداوة التي أنبتت الحرب العالمية الثانية .

ولسون ومبدأ العصبة :

وأخيراً نصل إلى النقطة الرابعة عشرة الخاصة بعصبة الأمم وهي أهم وأعظم خطوة خطاها العالم إلى الأمام في سبيل تأمين السلام العام بين الدول ، وكان ولسون عالماً بما سيكون لهذا النظام الدولي الجديد من أثر بليغ في سياسة العالم فأودعه قرارة نفسه وأولاه كل اهتمام وعطف جعله يرأس بنفسه اللجنة التي تكونت لوضع الميثاق ويصر على أن تصدر معاهدة الصلح بميثاق العصبة حتى

تكون مصادقة الدول على المعاهدة شاملة ميثاق العصبة أولاً وقبل كل شيء ؛ وعلى ذلك قرر ولسون في آخر لحظة أن يعتلى متن السفينة الأمريكية « واشنجتون » ويحضر بنفسه إلى أوروبا ليشرف عن كשב على قرارات الصلح وليقدم للعالم وللتاريخ مشروع العصبة .

ولما حل ولسون بأرض فرنسا كانت باريس تموج بطوائف من جميع شعوب العالم جاءت تستشف أخبار المؤتمر وتنتظر ميلاد العهد الجديد في قصر فرساي . وكانت هذه الجموع تغضى ببصرها أمام الرئيس وتحنى له الرؤوس كما لو كان أحد الآلهة القدماء جاء عبر الإطالانطى ليخلص العالم القديم مما خلفته الأجيال الماضية من مظالم وشُرور وآثام .

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن الآلهة الجديدة مصنوعة من الطين كبقاى مخلوقات الله من بنى آدم فلم يلبث ولسون أن اتصل « بكليمنسو » Clemenceau رئيس الوزارة الفرنسية ثم اقترحه لرياسة المؤتمر تكريماً لفرنسا واتصل « بلويد جورج » Lloyd George رئيس وزراء إنجلترا فإذا مبادئه من بعد غير مبادئه ، وإذا هو قد تردى في حمأة السياسة الأوروبية وانغمس في أدرانها وانهد كيانه الأربع عشرة وتبخر معظمها وإذا كليمنسو يقول متهمكاً إن ولسون قد طغى وتكبر على الله جلت قدرته إذ جاء للتبشير بأربع عشرة وصية والله سبحانه وتعالى قد أنزل عشرة فقط !

ولم تكن فكرة العصبة وليدة مؤتمر الصلح وحده فقد تألفت في أثناء الحرب في كثير من البلاد جماعات حرة كان شعارها جميعاً منع وقوع كارثة الحرب مرة أخرى ففي سنة ١٩١٤ تكونت جماعة بزعامه « لورد بريس » Bryce الذى كان سفيراً لإنجلترا في الولايات المتحدة ومن هذه الجماعة تألفت في سنة ١٩١٥ جمعية

عصبة الأمم وقوام هذه الجمعيات إحالة موضوعات الخلاف بين الدول على لجان لتحقيقها ثم على محكمة تصدر الحكم فيها . وعلى الجميع أن يتعاونوا معاً ضد الدولة العاصية التي تخالف قرار المحكمة .

وفي سنة ١٩١٦ كانت الولايات المتحدة لاتزال على الحياد فتكونت فيها جمعية لتحقيق السلام بين الدول وكان على رأسها مستر « تافت Taft » الذي كان رئيساً للولايات المتحدة قبل أن يتولاها ولسون في سنة ١٩١٣ وقد نشطت هذه الجمعية وزارت بلاداً كثيرة في أوربا وكان من مبادئها التي نادى بها إعادة دعوة مؤتمر السلام في لاهاي للانعقاد وتخفيف التسليح وحرية البحار وإبطال المعاهدات السرية وجعل السياسة الخارجية من صميم اختصاص البرلمانات .

ولقد كان لهذه المبادئ أثر عظيم في وضع الأسس التي قام عليها ميثاق عصبة الأمم كما صاغته لجنة مؤتمر الصلح برياسة ولسون .

أما حكومات الحلفاء فكان طبيعياً أن يتأخر اهتمامها بمشروع العصبة حتى تسفر الحرب عن النتيجة التي ترضاها وعلى ذلك لم تبدأ الحكومتان الإنجليزية والفرنسية نشاطهما في هذا السبيل إلا في سنة ١٩١٨ حين عينت الحكومة الإنجليزية لجنة لبحث موضوع منع الحرب في المستقبل برياسة « لورد فيليمور » Phillimore وعينت الحكومة الفرنسية لجنة برياسة مسيو « ليون بوجوا » Bourgeois وكان تقرير اللجنة الفرنسية من أهم المراجع التي استندت إليها لجنة العصبة .

الميثاق :

وميثاق العصبة مكوّن من ست وعشرين مادة تختص المواد السبع الأولى منها بإدارة العصبة والمواد الباقية بموضوع المعاهدة أو الميثاق وقد أطلقوا عليه

«الميثاق» Covenant أو العهد ليضفوا على المعاهدة روحاً من القداسة والإيمان يجعلها بمنأى عن الظن والنكث .

وقد جاء في مقدمة الميثاق أن الأعضاء المتعاقدين يوافقون على عهد العصبة وميثاقها مدفوعين بعامل الغيرة على إنماء روح التعاون بين الدول وتحقيق السلام والأمن بينها بالأخذ بما يأتي :

- الالتزام بعدم اللجوء إلى الحرب .
- قيام العلاقات الشريفة بين الأمم على أساس الصراحة والعدالة .
- توطيد القانون الدولي كأساس للتعامل بين الدول .
- اتباع العدالة والاحترام الدقيق للمعاهدات بين الشعوب .

وأول ما يلفت النظر في العصبة أنها ليست عصبة أمم بالمعنى الصحيح فإن الحكومات لا الأمم هي التي ترسل مندوبيها لتمثيلها في العصبة . كما أن إطلاق كلمة «الأمم» قد يدعو إلى الظن بأن جميع الأمم أو بالأحرى الحكومات ممثلة فيها في حين أن كثيراً من الدول لم تشارك في العصبة . فالولايات المتحدة أولاً لم توافق على معاهدة الصلح ومعها ضمناً ميثاق العصبة وعلى ذلك لم تشارك وكذلك لم تشارك في أول الأمر روسيا ولا ألمانيا طبعاً .

العضوية :

وقد قصروا الاشتراك أولاً على الدول التي اشتركت في الحرب مع الحلفاء ووقعت على معاهدات الصلح وفي مقدمتها ضمناً ميثاق العصبة . ثم دعا الحلفاء عدداً من الدول المحايدة وأخيراً حددت المادة الثانية من الميثاق « أن كل دولة متمتعة بحكم نفسها تماماً لها حق العضوية في العصبة بشرط موافقة ثلثي الجمعية العمومية » ولم يميزوا في قبول الدول بين المستعمرة وغيرها ما دامت المستعمرة

متمتعة بالحكم الذاتى ولذلك دخلت العصبة كندا وأستراليا وجنوب أفريقية ونيوزيلندا بصفقتها جميعاً دولاً محاربة . أما الهند فلم تكن إذ ذاك متمتعة بالحكم الذاتى ومع ذلك فقد قبلت كذلك فى العصبة بحكم توقيعها على معاهدة الصلح كحكومة اشتركت فى الحرب . واشتركت ألبانيا سنة ١٩٢٣ باقتراح من إيطاليا على رغم أن ألبانيا لم تكن متمتعة بحكم دستورى . ومع ذلك فقد حرما مصر وإيرلندة حق العضوية فى ذلك الوقت على رغم قيام حكومة ذاتية فى كل منهما ويظهر أنهم فسروا الحكم الذاتى أو الدستورى بالاستقلال السيامى ، وقد بلغ أعضاء العصبة فى سنة ١٩٣٨ : ٥٤ دولة وكانت مصر آخر دولة مستقلة انضمت إلى العصبة فى ٢٦ مايو سنة ١٩٣٧

ويجب أن نذكر أن العصبة كما صاغها الميثاق لم تكن ذات سلطان فوق سلطان الدول فالحكومات لم تتنازل عن قيد شعرة من سيادتها التامة فى سبيل العصبة ومن أجل ذلك اشترطوا أن يكون الاجماع فى الآراء قاعدة للعمل فى مجلس العصبة أو فى الجمعية العمومية إلا إذا نص فى الميثاق أو المعاهدة على غير ذلك فإذا كانت القرارات بالأغلبية لم تكن ملزمة للدول . كما أنهم تركوا للدول حق الانسحاب من العصبة بشرط تقديم إنذار بذلك قبل الانسحاب بسنتين .

إنما العصبة أداة للتعاون الدولى فى مختلف نواحيه ففى خلصت روح التعاون بين الدول مضت العصبة قدماً فى سبيل التفاهم العالمى وأما إذا ضعفت روح التعاون ودب التنافس والصراع بين أعضائها فإنها لاتبث أن تشل وتموت كما حل بها أخيراً . فالعصبة ذاتها عضو غير فعال وإنما تستمد حيويتها وسلطانها من إجماع أعضائها .

نفسها فانه يصعب أن ترغم على التنفيذ بغير الحرب أو توضحية جانب من كبريائها القومى . وقد جاء ميثاق عصبة الأمم مؤيداً هذا المبدأ فترك الدول تتمتع بسيادتها القومية كاملة ولم ينص على علاج حاسم لمشكلة العصيان .

والواقع أن العلاج بسيط في مظهره ولكنه بالغ حد الخطورة في تنفيذه فالسلطات المدنية تنفذ أحكامها في داخل البلاد بواسطة قوة البوليس بل قد تلجأ الحكومات أحياناً إلى القوة الحربية لتنفيذ أحكامها إذا تعرض الأمن العام للخطر . وفي هذه الحال إما أن يكون الجمهور مؤيداً للحكومة فيساعدها على التنفيذ وإما أن يكون مخالفاً فتتسأ حرب أهلية أو ما يشبهها وبمثل هذا يجب أن تعالج المشاكل الدولية إذا تمردت إحدى الدول ونقضت عهدها فاما أن يرغبها « بوليس دولى » على التنفيذ ومن ورائه مجموعة الدول تسنده وتشد أزره وإما اضطرب الأمن الدولى وتعرض السلام العام للانهدام . وهذا هو ما وقع بالضبط فقد تمردت اليابان وتمردت بعدها ألمانيا وإيطاليا وتداعى على أثر ذلك بناء العصبة وقامت الحرب العالمية الحالية .

وسنرى فيما يلى ضالة الاجراءات التى اضطرت الدول إلى قبولها لتعذر الاتفاق على غيرها تمسكاً منها بحقوق السيادة الكاملة لها .

فقد نصت المادة الثالثة عشرة على أن يقوم الأعضاء بتنفيذ القرارات التى يصدرها المحكمون أو المحكمة عن طيب خاطر وبكل أمانة وأنهم لا يلجئون إلى محاربة الدول التى تنفذ هذه القرارات فإذا لم ينفذ القرار اقترح المجلس الإجراءات الكفيلة بتنفيذه .

وتنص المادة الخامسة عشرة على أنه إذا قام بين عضوين خلاف يخشى أن يؤدي إلى قطع العلاقات بينهما ولم يعرض الخلاف للتحكيم أو على محكمة العدل فإن الأعضاء يبلغون موضوع الخلاف للمجلس وعلى المجلس أن يصدر تقريره فى

موضوع الخلاف فإذا كان تقرير المجلس بالإجماع عدا العضوين المتنازعين فإن الأعضاء يوافقون على ألا يلجئوا إلى الحرب ضد الدول الموافقة على تقرير المجلس أما إذا كان تقرير المجلس بالأكثرية فإن الأعضاء يحتفظون بحريتهم في العمل على نصرة الحق والعدالة .

والمجلس أن يحيل موضوع الخلاف على الجمعية العمومية بشرط موافقة أحد الجانبين المتنازعين .

وتقضى المادة السادسة عشرة الشهيرة بمادة العقوبات أو Sanctions على أنه إذا لجأ أحد الأعضاء إلى الحرب ناقضاً بذلك عهوده ومواثيقه فإن هذا العضو يبعد من العصبة ويصبح فعلاً كأنه أعلن الحرب ضد جميع أعضاء العصبة . وعلى ذلك تتعهد العصبة في الحال بقطع جميع العلاقات والعاملات المالية والتجارية بين مواطني الدولة العاصية ومواطني الأعضاء وغيرهم . ومن واجب المجلس في هذه الحال أن يوصي الدول المختلفة بما يلزم من إعداد القوى الحربية والبحرية والجوية التي تستخدم للمحافظة على قوانين العصبة وعلى الأعضاء جميعاً أن يتعاونوا في هذا السبيل .

وتنص المادة السابعة عشرة على ما يتبع إذا قامت الحرب بين عضو في العصبة وعضو غير مشترك في العصبة أو بين عضوين غير مشتركين فإن العضو غير المشترك يدعى للاشتراك وبذلك تطبق المواد السابقة فإذا أصر أحد المتنازعين أو كلاهما على عدم الاشتراك فلمجلس أن يقرر ما يراه بشأن وقف الحرب وتسوية الخلاف بين المتنازعين .

تخفيف التسليح :

ومن الأغراض المهمة المتصلة بمنع الحرب والتي كان على العصبة تحقيقها تخفيف التسليح فقد نصت المادة الثامنة من الميثاق على أن الاحتفاظ بالسلام يتطلب

تخفيف التسليح الوطنى فى مختلف البلاد إلى الحد الذى يتفق مع سلامة الوطن من جهة والقدرة على تنفيذ الالتزامات الدولية بالعمل المشترك من جهة أخرى . وقد تركزت للمجلس أن يضع مشروع التخفيف وفق ما تقتضيه ظروف كل دولة وموقعها الجغرافى ونصت المادة على أن يتعهد الأعضاء بتبادل المعلومات الصريحة الصحيحة التامة عن برامج التسليح ومهامه المختلفة .

وقد جاء فى الجزء الخامس من معاهدة فرساي أنه رغبة فى تنفيذ سياسة تحديد التسليح عند جميع الأمم تتعهد المانيا بتنفيذ جميع الشروط الحربية والبحرية والجوية التى قضت بها المعاهدة أما فيما عدا ذلك فقد تعذر تطبيق هذه المادة على الدول الأخرى وذلك بسبب الخوف الذى استولى على الأمم فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى ورغبة كل دولة فى تأمين نفسها وحدودها بالاستعداد للحرب فكانت الحكومات إذا طولبت بتحديد التسليح طالبت بالتأمين ولم تهتد الدول إلى قرار فيما إذا كان التأمين يتبع تحديد التسليح أو العكس . ولكن يظهر أن فكرة التأمين أولاً وقبل تخفيف التسليح قد تغلبت فى النهاية ولتحقق هذا التأمين الكاذب أخذت الدول تتسلح وتتسلح حتى بلغ ما أنفقته بريطانيا على التسليح سنة ١٩٣٨ نحو ٣٣٣.٠٠٠.٠٠٠ جنيه وكان قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٧٣.٠٠٠.٠٠٠ جنيه أى أن المبلغ قد تضاعف أكثر من أربع مرات .

وقد برهنت الحرب الحالية على أن أسلحة الحرب سواء فى البر أو البحر أو الجو قد تطورت تطوراً ميكانيكياً هائلاً جعل من المتعذر على الدول غير الصناعية الكبرى إنتاج مثل هذه الأسلحة الضخمة ؛ إذن فقد خرج من مسابقة التسليح بصغة نهائية الدول الصغرى المحدودة الموارد الصناعية والمالية وبقيت الدول الصناعية الكبرى صاحبات الأسلحة الضخمة وحدها فى الميدان . من هذه الدول اثنتان هما المانيا واليابان مقضى عليهما فى النهاية بنزع سلاحهما الخفيف والثقيل

وبذلك يقتصر التسليح الضخم على الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا وقد تليها فرنسا بعد فترة . فإذا اتفقت الدول الثلاث واضطلعت فيما بينها بمهمة « البوليس الدولي » ساد السلام بين الدول ولم تعد هناك حاجة إلى معاودة التسليح . أما إذا اختلفت فيما بينها وتصدعت وخذتها فإن التسابق في التسليح سيعود سيرته الأولى كما عاد بعد الحرب العالمية الأولى وتنشب الحرب العالمية الثالثة ويالهول العالم من حرب ميكانيكية آلية كالتي بدت بدارها الآن في القنابل الطائرة والدبابات العشواء والطوربيد المغنط وخليق بحرب كهذه ألا تبقى على شيء من المدنية ولا تذر !

نظام الانتداب :

ومن النظم الجديدة التي أعلنها ميثاق العصبة وكان له تأثير حسن لدى الشعوب المتأخرة نظام الانتداب الذي وضع حداً لسياسة الضم والاستعمار التي سارت عليها الدول الكبرى من قبل . ومع أن نظام الانتداب لم يطبق إلا على مستعمرات المانيا وولايات تركيا فإن أثره الأدبي كان أعم من ذلك فقد أصبحت الدول المستعمرة تعمل باسم العصبة وتسال أمام لجنة دائمة في العصبة وعلى الدولة صاحبة الانتداب أن تقدم تقريراً سنوياً عن أحوال البلاد الواقعة تحت انتدابها . وتنص المادة الثانية والعشرون على أن يكون الغرض الأساسي من الانتداب سعادة الشعوب المحكومة وترقيتها وفي حالة الشعوب الراقية التي كانت تحت حكم الترك تقصر مسؤولية الدولة المنتدبة على تقديم المشورة والمساعدة حتى تستطيع الشعوب الخاضعة للانتداب النهوض بنفسها والوقوف على قدميها . وكان العراق أول هذه الشعوب خروجاً من نظام الانتداب وقبولاً في عصبة الأمم على أساس المعاهدة مع بريطانيا في سنة ١٩٣٢ . أما أملاك المانيا فقد وزعت بين أملاك بريطانيا المستقلة واليابان وإيطاليا

سائر المواد :

وقد أقر الميثاق ماجاء في النقط الأربع عشرة خاصاً بالمعاهدات فنصت المادة الثانية عشرة على وجوب تسجيل جميع المعاهدات والارتباطات الدولية في سكرتيرية العصبة وأن هذه المعاهدات لا تكون ملزمة إلا إذا سجلت وتنص المادة التاسعة عشرة على حق الجمعية العمومية في إعادة النظر في المعاهدات التي بطل عملها والتي يخشى من استمرار سريانها على السلام العام .

ونصت المادة العشرون على بطلان المعاهدات والاتفاقات التي تتعارض مع شروط الميثاق وبمقتضاها يتعهد الأعضاء بعدم الارتباط في المستقبل بالتزامات لا تتفق مع شروط الميثاق .

وتنص المادة الحادية والعشرون على احترام الالتزامات الدولية التي قصد بها خدمة قضية السلام العام مثل معاهدات التحكيم وذكروا «مبدأ منرو» بالنص إكراماً لرئيس الولايات المتحدة ورغبة في كسب الرأي العام الأمريكي إلى جانب العصبة . ونصت المادة السادسة والعشرون من الميثاق وهي الأخيرة على طريقة تعديل الميثاق فاشتطت لذلك موافقة أعضاء المجلس جميعاً وأكثرية الجمعية العمومية وأخيراً جاء الميثاق مؤيداً للروح الإنسانية والاجتماعية التي سادت في السنين الأخيرة فأخذت العصبة على عاتقها واجب تنفيذ الاتفاقات الخاصة بمنع تجارة الرقيق الأبيض وتهريب الأفيون والمخدرات ومراقبة تجارة الأسلحة والذخائر وخاصة في الممالك التي يقضى الصالح العام بمراقبتها في ذلك .

ونصت المادة الثالثة والعشرون على تحسين حال العمال من الرجال والنساء والأطفال في البلدان المختلفة وفي المستعمرات وقد أنشئت لتحقيق هذا الغرض هيئة العمل الدولية المستقلة لتأمين السلام بين العمال بتقرير الأجور وأوقات العمل وتسوية الخلافات . وقد خطت هذه الهيئة خطوات واسعة في سبيل التفاهم الدولي

فكان للولايات المتحدة واليابان والبرازيل أعضاء يمثلونها في الهيئة على رغم كونهن خارج العصبة وقد صادفت هذه الهيئة نجاحاً تاماً في مساعيها الدولية لأنها تجردت من المنافسات والأطماع الفردية للدول تلك الأطماع التي ترمى إلى اتساع السلطان والتفوق السياسى .

تلك هى أهم معالم الميثاق الذى غير فى أول أمره وجه السياسة الدولية وكاد يحولها من سياسة فردية تحزبية عرفت فى الماضى بسياسة التوازن الدولى إلى سياسة دولية كادت تكون عالمية لولم يخنها الحظ بعزلة الولايات المتحدة عنها إذ اضطبغت العصبة بعد ذلك باللون الأروى القائم وأنخذت الدول وخاصة بريطانيا تهيب تحمل مسئولية تأمين السلام من غير معاونة أمريكا وكان ارتباط الميثاق بمعاهدة الصلح التي جاءت شديدة الوطأة على ألمانيا وحلفائها دلالة شؤم على العصبة إذ ظن الناس أن العصبة إنما أنشأها الحلفاء فى أوروبا لحراسة الشروط الإقليمية التي جاءت فى المعاهدة لصالح الحلفاء ونص الميثاق على ضرورة احترامها وتضاءلت أمام هذا الاعتقاد السياسى سائر الأغراض الدولية والاجتماعية التي عمل الميثاق على تحقيقها والنهوض بها لصالح الجميع .

الفصل الخامس

أخطاء الماضي

لعل أول ما دعا إلى ضعف عصبة الأمم أنها لم تجمع في صفها الدول الكبرى التي تستطيع فيها بينها أن تتحمل مسؤولية التأمين المشترك من جهة وأن تضمن عدم نشوب حرب عالمية من جهة أخرى . وغير خاف أن الحروب إذا قامت بين الدول الصغرى كان من السهل على مجلس العصبة أن يتدخل ويقف الحرب بينها . أما إذا قامت الحرب وكان أحد الطرفين دولة كبيرة مشتركة في العصبة أو غير مشتركة فإن الموقف يتغير فترفض الدولة الكبيرة أن تستمع أو تخضع لرأى أو قرار لا يوافق مصلحتها الخاصة .

ضربات العصبة للسلم :

ولقد استطاعت العصبة أن تحول دون وقوع الحرب أكثر من مرة . فقد حدث في أغسطس سنة ١٩٢٣ حين كانت لجنة تقوم بتعيين الحدود بين ألبانيا واليونان أن قتل المندوب الإيطالي الجنرال تليني Tellini وقد وقع الحادث في أرض يونانية وكانت الحكومة الفاشستية في إيطاليا حديثة عهد بتقليد الحكم فأرادت أن تعلن للعالم حزمها وجبروتها فطالبت اليونان بدفع تعويض والاعتذار ولما تباطأت الحكومة اليونانية في التنفيذ أرسلت إيطاليا أسطولها فوراً إلى المياه اليونانية واحتلت « جزيرة كورفو » بعد رميها بالقنابل فلجأت اليونان إلى العصبة وتدخل المجلس في الأمر وأقر أن تدفع اليونان تعويضاً لإيطاليا قدره ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ليرة إيطالية وأن تسحب إيطاليا قواتها من كورفو .

وكذلك حدث في أكتوبر سنة ١٩٢٥ أن توترت العلاقات بين اليونان وبلغاريا واخترق الاغريق الحدود وكادت تنشب الحرب بينهما فليجأت بلغاريا إلى العصبة وكان رئيس مجلس العصبة إذ ذاك السياسي الفرنسي الشهير مسيو « بريان Briand » فما إن وصلته أنباء الحادث حتى اتصل تليفونيا بالحكومتين وطلب إليهما باسم عصبة الأمم وقف الاستعداد للحرب فوراً وسحب قوات كل من الحكومتين إلى داخل حدودها وفي مدى ثلاثة أيام انعقد مجلس العصبة في باريس وقد جاء إليه بعض الأعضاء على متن الريح وقرر المجلس أن يطلب إلى اليونان سحب قواتها في مدى أربع وعشرين ساعة وأن يدعو بريطانيا وفرنسا وإيطاليا إلى تكليف ملحقهم العسكريين في أثينا مراقبة الحالة وتبلغ المجلس تنفيذ أوامره وفعلاً وصلت الأوامر إلى الجيش اليوناني الذي كان يتهماً للهجوم بالارتداد قبل موعد الزحف بساعات قليلة . وبذلك أمكن تفادي وقوع حرب في البلقان لو أن نيرانها استعرت لالتهمت البلقان كله ولا استطار شرارها إلى باقي دول أوربا كما حدث في الحرب العالمية الأولى . وقد قرر المجلس أن تدفع اليونان ٤٥٠٠٠ جنيه تعويضاً لخسائر البلغار بين الساكنين على الحدود .

ومما يلفت النظر في هذا الحادث أن « بريان » كان يخاطب الحكومتين المتنازعتين لا باسم فرنسا ولا بصفته وسيطاً بين دولتين متحاربتين ولكنه كان ينطق بلسان الإنسانية جمعاء باسم جامعة الأمم التي أخذت على نفسها الموائيق للمحافظة على السلام العام وقد بلغ من تأثير بريان أن ممثلي الحكومتين المتنازعتين اللذين حضرا المجلس لم يسعهما سوى الخضوع لقوة الجماعة والتضامن مع المجلس في قراراته .

يقابل ذلك التوفيق إخفاق العصبة الذريع في كبح جماح الدول الكبرى المهاجمة وذلك لتعذر الإجماع فيما بينها من جهة ولتهرب الدول الأخرى من تحمل مسؤولية

الدخول في حرب لا تخدم مصالح شعوبها ولا تعود عليها بفائدة مباشرة وعلى ذلك تترك الدولة المعتدية تشيع أغراضها ماشاءت لها الأطلاع كما وقع للصين في منشوريا حين اعتدت عليها اليابان سنة ١٩٣١ ، وكما وقع لاثيوبيا من إيطاليا سنة ١٩٣٥ وكما حلّ بتشكوسلوفاكيا من المانيا سنة ١٩٣٨ .

أثر عزلة روسيا وأمريكا عن العصبة :

ولو كانت روسيا منضمة إلى العصبة في سنة ١٩٣١ وكانت تشاطر أعضاء المجلس رأيهم في وجوب مقاومة العدوان — ما اجترأت اليابان على تحدى العصبة باحتلال منشوريا ومحاربة الصين . ولو كانت الولايات المتحدة في العصبة من أول الأمر لما اجترأت دولة ما من الدول المعتدية على ما اقترفت خوفاً من إجماع الدول الكبرى ضدها . وليس من شك في أن التماسك والاتفاق بين الدول الكبرى كان كافياً لردع الدولة التي تحدتها نفسها بالاعتداء ومقاومة الإجماع . لذلك يعتبر بعضهم أن تسعين في المائة من المتاعب السياسية التي أصابت العالم قبل قيام الحرب العالمية الثانية كان سببه عزلة أمريكا السياسية وابتعادها عن عصبة الأمم . فقد أخطأ ولسون وأساء تقدير الظروف حين اعترى بقدرته وسلطاناه فأخذ على عاتقه بمعاونة أتباعه الخصوصيين مهمة إبرام صالح فرسايل وتقرير ميثاق عصبة الأمم غير مقدر للتيارات السياسية الداخلية في بلاده تأثيرها في السياسة العامة . فلو أنه اصطحب معه إلى فرسايل واحداً أو أكثر من زعماء الحزب الجمهوري المعارض وأشركهم معه في المسئولية لبات محتملاً إقرار المعاهدة ومعها الميثاق . ولكنه لم يفعل ولما كان رئيس الولايات المتحدة ليس من حقه أن يعقد المعاهدات السياسية مع الدول الأخرى إلا بموافقة ثلثي أعضاء مجلس الشيوخ وكان عدد أنصاره في هذا المجلس لا يضمن له إذ ذاك أن يحصل على هذه النسبة فإن حلفاءه في أوروبا لم يعلقوا آمالاً كبيرة على بقاء نفوذه العظيم

فداهنوه في أول الأمر ثم ما لبثوا أن استمالوه إلى سياستهم . ولما عرض أمر الصلح والعصبة على مجلس الشيوخ رفض المعاهدة والميثاق معاً . وكان هذا الرفض متوقفاً لأنه ليس من الممكن أن تحيد الولايات المتحدة بسهولة عن سياستها التقليدية التي تقتضى تجنب الاشتباك في مشا كل السياسة الأوربية .

ولما كان الميثاق يتضمن النص على احترام قرارات معاهدة الصلح والتعهد بمقاومة كل اعتداء على ما قضت به المعاهدة وفق ما يشير به مجلس العصبة فقد كان أخوف ما تخافه الولايات المتحدة أن تدعى في وقت ما لإرسال ملايين الشبان الأمر يكيين إلى أوربا للموت من أجل سياسة إقليمية لا تؤثر قليلاً أو كثيراً في صالح الولايات المتحدة . وكان من أسباب رفض الولايات المتحدة أن يربط الميثاق بمعاهدة الصلح فتتظر إليه الدول الأخرى كأنه أداة أعدت لمناهضتها والإمعان في إضعافها كما ساءها من أمر العصبة أن يكون لبريطانيا وأملا كلها المستقلة ستة أصوات على حين لا تملك الولايات المتحدة إلا صوتاً واحداً .

ولم يقتصر الأمر على ابتعاد الولايات المتحدة عن العصبة بل إن ألمانيا، وروسيا على أثر ثورتها وخروجها من صفوف الحلفاء قد ابتعدتا عن العصبة كذلك وقد تحسنت الحال قليلاً بانضمام ألمانيا في سنة ١٩٣٦ وحصولها على مقعد دائم في مجلس العصبة ولكن الأمور لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى بعد قيام الحكم الهتلري وخرجت ألمانيا من العصبة سنة ١٩٣٣ . ولم تنصاح الحال بدخول روسيا سنة ١٩٣٤ فقد انسحبت اليابان في سنة ١٩٣٢ تحدياً للعصبة وغزت جيوشها منشوريا واشتبكت بسبب ذلك في حرب مع الصين لا تزال قائمة إلى الآن وخرجت إيطاليا في سنة ١٩٣٧ بسبب توقيع العقوبات عليها جزاء اعتدائها على اثيوبيا سنة ١٩٣٥ . ومنذ سنة ١٩٣٧ خرجت من العصبة جمهوريات أمريكا الجنوبية براجواي وشيلي وسلفادور وفنزويلا .

فصل مبدأ التأمين المشترك :

على أننا إذا أغضينا عن ابتعاد الولايات المتحدة عن العصبة وقلنا إنه كان في الإمكان أن تكون العصبة أوربية بحتة ما دامت أوربا هي مصدر القلاقل وفيها تتركز مشاكل الحدود والأطباع الإقليمية ، فإن ثمة سبباً آخر له شأن بالغ في إخفاق العصبة ، وهو التأمين المشترك فقد جاء في المادتين العاشرة والحادية عشرة أنه في حالة وقوع الحرب أو التهديد بالحرب يقرر المجلس الإجراءات والوسائل التي تتخذ لقيام الأعضاء بالتزاماتهم ضد المعتدى ، ولكن الميثاق جاء خلواً من تحديد الإجراءات واكتفت المادة السادسة عشرة بتوقيع ما عرف فيما بعد « بالعقوبات » وهي عبارة عن قطع العلاقات التجارية والمالية مع الدولة المعتدية التي تخالف قرارات المجلس أو محكمة العدل ، وقد برهنت الحوادث على أن تنفيذ العقوبات لا يصيب في النهاية سوى الأبرياء من الأهالي والنساء والأطفال والضعفاء الذين سيحرمون حتماً من استيراد حاجاتهم وتصدير أثمانها من محصولاتهم وبضائعهم على حين يحمل ذلك الحكومة المتمردة على تعبئة قواتها وتهيئة الرأي العام لحرب مدمرة مع الدول التي نفذت ضدها قرارات الفقر والجوع والحرمان .

وهذا هو ما حصل في إيطاليا نفسها عندما تحدثت العصبة في سنة ١٩٣٥ وهاجمت اثيوبيا ، فبينما كانت لجان العصبة المختلفة تجتمع لتقرير ما تراه بشأن تنفيذ المادة السادسة عشرة كانت إيطاليا ترسل جيوشها وأسلحتها في عرض البحار وداخل قناة السويس استعداداً لاقتناص فريستها قبل أن تطبق عليها العقوبات .

ولقد كان من رأى فرنسا وهي التي اجتاحت حدودها ووطىء العدو أرضها مرتين في جيل واحد أن يهتم الميثاق بردع المعتدى فيقرر تأليف هيئة دولية

حربية يكون لها من القوة ما يكفي لردع الدولة الباغية ، ووقوفها عند حدها ، ولكن مثل هذه الهيئة كانت تعتبرها إنجلترا والولايات المتحدة في ذلك الوقت منافية لحق السيادة الكاملة للدول كما أن وجود هيئة حربية دولية قائمة سواء أسميت جيشاً دولياً أم بوليساً لم يكن تقليداً محبباً إلى الجنس الإنجليزى السكسونى سواء فى بريطانيا أو فى أمريكا ، وعلى ذلك جاء الميثاق خلواً من « الهيئة البوليسية » التى كانت وحدها تستطيع أن تطمئن فرنسا وتهدى روعها . ومن ذلك جاءت فكرة « التأمين المشترك » ناقصة منذ اللحظة الأولى ، وظن واضعو نظام العصبة أن الدول ستعاون جميعاً بإخلاص وعن طيب خاطر على ردع المعتدى ، وفاتهم أن هناك دولاً معينة ستقع عليها دون غيرها مسئولية التأمين نيابة عن العصبة ، وأن سائر الدول ستستفيع بالتأمين دون تحمل نفقة ما . ولما كانت العقوبات التى نص عليها الميثاق اقتصادية تقوم على الحصر البحرى ، كان لابد أن يقع حمل التأمين على كاهل إنجلترا ، وهى الدولة البحرية الأولى التى تستطيع تنفيذ الحصر البحرى . وهيهات أن يقبل الشعب البريطانى الدستورى ، وهو فى حالة السلم أن يدخل فى حرب لا يجد فيها مصلحة هامة لبلاده ، مثل حرب اليابان عند ما اعتدت على الصين ، أو حرب إيطاليا عند ما اعتدت على إثيوبيا ، أو حرب المانيا عند ما اعتدت على تشيكوسلوفاكيا . ولقد كانت إنجلترا فى أول الأمر معتمدة على معاونة الولايات المتحدة لها فى تحقيق التأمين الجمعى ، ولكن الشعب الأمريكى كما عرفنا ظل متمسكاً بمبدأ العزلة عن أوروبا والتحصن وراء « مبدأ منرو » ، فلما تطورت الحال فى الغرب وأخذت إيطاليا تسلح نفسها فى البحر الأبيض المتوسط ، وأخذت اليابان تسلح نفسها فى المحيط الهادى ، أصبح من المتعذر على إنجلترا تحمل المسئولية جميعها ؛ وعلى ذلك وقفت العصبة مكتوفة الأيدى أمام اليابان ، وعلى أثر ذلك تشجعت إيطاليا فتحرشت بأثيوبيا وأخذت تعد العدة لفتحها موقفة بأن لجان العصبة ستقضى

الأيام والشهور في بحث الموضوع دون أن تصل إلى نتيجة حاسمة ولأن مسؤوليني كان يعلم تمام العلم أن من وراء القوات البرية والبحرية والجوية التي تملكها بريطانيا إرادة الشعب الإنجليزي الذي كان يمقت الحرب ويأبى أن يضحي بدماء أبنائه من أجل إثيوبيا وإعادة النجاشي إلى عرشه .

ولما آتست فرنسا عدم كفاية التأمين الجمعي ، كما جاء في ميثاق عصبة الأمم أخذت تسد النقص ، ولجأت إلى الأساليب القديمة التي أنتجت الحرب العالمية الأولى فعمدت معاهدات مع بولندة ودول الاتفاق الصغير وهي يوغوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا .

نفوق مبادئ السلم

وفي سنة ١٩٢٥ كانت روح الوثام سائدة في أوروبا بفضل السياسة التي اتبعها وزراء خارجية كل من فرنسا وألمانيا وإنجلترا « بريان Briand » « واسترمان Stresemann » « وسير أوستن شمبرلن Chamberlain » على التوالي ، فعمد السياسيون الثلاثة إلى ضمان السلم في أوروبا بعقد معاهدة لوكارنو في نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وبمقتضاها تعاقدت فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا على الاحتفاظ بحدود دولهم وعدم الالتجاء إلى الحرب بعضهم ضد بعض . واعترفت ألمانيا بحيدة إقليم الرين وعدم تحصينه ، وبمقتضى هذه المعاهدة أصبحت كل من بريطانيا وإيطاليا ضامنة لهذا العهد — الأولى عن فرنسا ، والثانية عن ألمانيا — وكل من بريطانيا وفرنسا عن بلجيكا ، وقد نص التعاقد على التعاون في حالة الاخلال بهذا العهد .

وكانت هذه المعاهدة من العوامل التي ساعدت على اطمئنان فرنسا من جهة وإزالة سوء التفاهم من ذهن ألمانيا من جهة أخرى فقبلت ألمانيا في العصبة بعد المعاهدة بسنة واحدة وأعطيت مكاناً دائماً في المجلس .

ميثاق كيلوج :

وأعقبت معاهدة لوكارنو محاولات أخرى كان الغرض منها توطيد أركان السلام بين الدول وإبطال الحرب كوسيلة لتسوية الخلافات الدولية وقد بدأت هذه المحاولات في فرنسا في عهد وزير خارجيتها « بريان » إذ أرسل إلى الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٧ يدعوها إلى تحالف ثنائي تتعهد فيه الدولتان باستنكار الحرب كأداة لتسوية الخلافات الدولية بتسوية المنازعات بالطرق السلمية فحسب وقد أجابت الولايات المتحدة برغبتها في جعل موضوع هذا التحالف عاماً يشمل جميع الدول . وفعلاً بدأ وزير خارجية الولايات المتحدة « كيلوج Kellogg » في مفاوضة الدول على الأساس المذكور

وأخيراً في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ وقعت أربع عشرة دولة على ميثاق يعرف بميثاق كيلوج وقد دعت الدول الموقعة على هذا الميثاق سائر الحكومات الأخرى إلى الإنضمام إليه فأخذت الدول تنضم تباعاً حتى شمل أكثر دول العالم ويبلغ عددها خمساً وستين دولة وقد انضمت مصر إلى الميثاق في عهد الملك فؤاد سنة ١٩٢٩ ، وكانت وزارة محمد محمود باشا في الحكم .

ويعتبر انضمام دول العالم كلها تقريباً إلى ميثاق كيلوج أهم خطوة خطتها الدول في سبيل توطيد السلام العام منذ إعلان ميثاق العصبة هذا إلى أن ميثاق العصبة لم يستنكر الحرب ولم يرفض الاعتراف بها كأداة يقرها القانون في المعاملات الدولية على حين يمتاز ميثاق كيلوج ببساطته وباستنكاره الحرب صراحة كوسيلة لحل الخلافات الدولية وإقرار الجميع أن الخلافات الدولية ينبغي أن تكون تسويتها بالطرق السلمية فحسب . ومع أهمية هذا الاجماع من دول العالم تقريباً فإن الميثاق لم يعد أن يكون عملاً صالحاً وأمنية شريفة إذ لم ينص فيه على

طريقة إرغام الدولة التي تخالف الميثاق كما أن الدول من جانبها فسرت الحرب التي أعطت المواثيق باستنكارها بأنها الحرب الهجومية . أما الحرب بمعنى الدفاع فاعتبرتها حقاً لها لا سبيل للنزول عنه وكان من السهل على الدولة الناكثة لعهدا أن تبرهن على أن عدوانها لم يكن إلا دفاعاً عن حقوق صورتها واعتقدت وجودها .

مشروع الاتحاد الأوربي :

وفي سنة ١٩٣٠ أصدر « بريان » مشروعه عن الاتحاد الأوربي وأخطر به الحكومات لتبدي رأيها فيه وقد أراد به « بريان » أن يكون بمثابة اتحاد داخل عصابة الأمم لا خارجاً عنها فتجتمع دول أوروبا في نظام يشبه حكومة الولايات المتحدة يكون لكل دولة فيه حكومة مستقلة استقلالاً تاماً عن غيرها ثم تنشأ سلطة فدرائية أو اتحادية تختص بالنظر في الشؤون الخاصة بالجيش والأسطول والتجارة والنقود والمواصلات والشؤون الخارجية وإذا قام خلاف بين الدول احتكمت الدول المتنازعة إلى محكمة عليا يكون لها الرأي الأعلى كما هو الحال في الولايات المتحدة تماماً . والغريب في هذا المشروع أن الوزير الفرنسي الشهير قد دعا الحكومات إلى هذا الاتحاد مع بقائها مستمعة بكامل استقلالها وسيادتها .

على أن المشروع لم يقدر له أن يمضي في طريقه إذ سرعان ما اجتاحت أوروبا موجتان عنيفتان إحداها مالية تدهورت على أثرها الأسواق المالية والتجارية في جميع أنحاء العالم والأخرى سياسية دكتاتورية إذ قوى نظام الحكم الفاشستي في إيطاليا وبدأت أطماع إيطاليا في تونس والبحر الأبيض المتوسط مناهضة في ذلك النفوذ الفرنسي ثم ظهر نظام الحكم الهتلري في ألمانيا وتوطد نفوذه على أثر مرض الرئيس هندنبرج سنة ١٩٣٣ فأخذ هتلر يتحرر من قيود سنة ١٩١٩ فخرجت ألمانيا

من العصبة سنة ١٩٣٣ ولم يصبح لضمان التأمين المشترك الذي جاء به ميثاق العصبة ولا لميثاق كيلوج أو لمعاهدة لوكارنو تقدير ما في نظر فرنسا وعلى ذلك لم ترَ فرنسا بدءاً من إحياء سياسة التوازن الدولي القديمة فعملت على إدخال روسيا العصبة سنة ١٩٣٤ ثم عقدت معها معاهدة دفاعية سنة ١٩٣٥ وبذلك تحزبت أوروبا سياسياً وحريةً ومهدت الطريق للحرب العالمية الثانية .

بره هبوب العاصفة والحرب الأثيوبية :

وكان أول هبوب العاصفة في صيف سنة ١٩٣٥ حين تلبد الجو السياسي بين إيطاليا والحبشة وكان كلاهما عضواً في العصبة والأولى معدودة من الدول العظمى والثانية من الدول الصغرى فكان هذا الحادث أول محك لاختبار نفوذ العصبة ولتقدير التأمين المشترك الذي جاء به الميثاق . ولما شكت أثيوبيا إلى العصبة من تحرش إيطاليا بها على أثر حادث بين جنود الدولتين في إقليم « الوال » على الحدود بين الصومال الإيطالي والحبشة وطالبت الحبشة بتطبيق المادة الحادية عشرة من الميثاق عارضت إيطاليا في تدخل العصبة واحتجت على مساواتها ببلاد شبه همجية كالحبشة وطلبت أن يترك الأمر بينهما للتحكيم وفق معاهدة سنة ١٩٢٨ بين إيطاليا والحبشة .

وكان من رأى إيطاليا أن موضوع الحبشة خارج عن نطاق العصبة وأنه موضوع استعماري خاص بإيطاليا مع أن إيطاليا نفسها هي التي قدمت الحبشة للاشتراك في العصبة سنة ١٩٢٣ وقد وافقت الجمعية العمومية للعصبة بناء على قرار اللجنة الفرعية التي بحثت الموضوع على قبول الحبشة عضواً في العصبة بشرط أن تتعهد بتأدية واجباتها إزاء معاهدات إلغاء الرقيق وتنظيم الاتجار بالأسلحة كما تتعهد بتنفيذ توصيات مجلس العصبة في هذا الصدد .

وعلى الرغم من أن الحبشة واقعة حقاً في المنطقة الإفريقية التي فتحت للاستعمار

الأوربي عقب الثورة المهدية وانسحاب المصريين من السودان في أول عهد الاحتلال الإنجليزي لمصر ظلت شئون مصر والمسألة الشرقية ودول البحر الأبيض المتوسط وامتداده إلى البحر الأحمر من المسائل التي يعرض لها البحث دائماً في مؤتمر الدول الأوربي في القرن التاسع عشر . وإذا كانت أثيوبيا متأخرة في مدنيتهما بالنسبة لغيرها فأنها كانت مستقلة كما اشترط الميثاق وهي على كل حال لم تكن أقل من جمهورية « ليبريا » ومن « سيام » وكانت ككتاها عضواً في العصبة . لذلك لم تستطع العصبة الإفلات من نظر موضوع الخلاف بين إيطاليا والحبشة وبات الناس ينتظرون متسائلين : أنظفر دولة صغيرة متأخرة مثل أثيوبيا بحجة من إيطاليا على يد العصبة التي تتساوى في نظرها جميع الدول أم تتغلب القوة على الحق وتطغى الروح الاستعمارية في عهد العصبة كما طغت في الماضي . وقد وجدت العصبة حجتها في إغفال أمر الصين ومنع عدوان اليابان زاعمة أن منطقة المحيط الهادي تدخل في نفوذ الولايات المتحدة وليست الولايات المتحدة عضواً في العصبة . واحتجبت العصبة هذه الحجة نفسها لما عجزت عن إرغام « بارغواي » حين اعتدت على « بوليفيا » سنة ١٩٣١ في أمريكا الجنوبية أما الآن ومنطقة النزاع بين إيطاليا وأثيوبيا داخلية في نطاق النفوذ البريطاني فإن العصبة لم تجد مخرجاً ينجيها من النظر في علاج الأزمة .

ولكن العصبة بدلاً من معالجة الموضوع بالحزم والسرعة اللازمين في مثل هذه الأمور أبطأت أو تباطأت في سيرها فألفت لجنة للتوفيق وأخرى لمساعدة الحبشة في إصلاح الحالة السياسية والمالية والاقتصادية وظلت اللجان تعمل مدة كانت إيطاليا في أثنائها قد أكملت عدتها واستعداداتها فأعلن رئيس دولتها أنه سيحقق أغراض إيطاليا مع « جنيف » أو بدون « جنيف » أو ضد « جنيف » وخاصة بعد أن رفضت إيطاليا قرار التحكيم الذي برأ الدولتين من مسئولية حادث « الوال »

فقدمت إيطاليا على أثر ذلك مذكرة للمجلس تنهم فيها الحبشة بالإخلال بالتزاماتها إزاء العصبة وتحتج على مساواتها بالحبشة وفعلاً تحركت قوات إيطاليا في أترية ضد الحبشة في أكتوبر سنة ١٩٣٥ .

وعلى ذلك أمكن إيطاليا أن تعتدى حريياً تحت سمع العصبة وبصرها على عضو في العصبة على رغم انقضاء نحو عام على ظهور الخلاف بين الدولتين واستنجااد أحد المتخاصمين بالمجلس . ولم يكن من العسير على العصبة أن تمنع أو تعرقل مساعي الدولة المعتدية وتحول دون مواصلة الاعتداء ، فالحبشة قريبة من منطقة نفوذ أعضاء العصبة وطريق قناة السويس الذي استخدمته إيطاليا في نقل جيوشها ومؤنها وذخيرتها كان داخلياً في نفوذ بريطانيا حتى على رغم أن مصر لم تكن قد تعافدت بعد مع بريطانيا ودخلت العصبة . بل إنه لم يكن أن يقال إنه لولا وجود العصبة لاستحال على إيطاليا اختراق البحر الأبيض والقناة والبحر الأحمر على غير رغبة بريطانيا . ولكن إيطاليا استغلت اختلاف الرأي في « جنيف » إذ كانت فرنسا ضالعة مع إيطاليا كما كانت على يقين من أن بريطانيا وحدها لن تستطيع التعرض لها خوفاً من إثارة حرب أوربية لا يرضاها الرأي العام البريطاني لسبب ثانوي في أهميته كالحبشة .

ومع ذلك فإن الحكومة الإنجليزية لم تقصر في اتخاذ الاجراءات اللازمة بواسطة العصبة فبعد أن وقعت الحرب فعلاً انتقل البحث من تطبيق المادتين الحادية عشرة والخامسة عشرة إلى المادة السادسة عشرة وقد عرفت هذه المادة بمادة « العقوبات » وقد اعتبرت إيطاليا رسمياً أنها لجأت إلى الحرب مخالفة بذلك المادة الثانية عشرة . ومع أن دول العصبة كانت مجمعة على الرأي ما عدا إيطاليا وألبانيا والنمسا والمجر فإنهم لما بدأوا يطبقون المادة السادسة عشرة أخذوا يتعثرون فبدلاً من تركيز الجهود وتسديد أكبر وأقوى ضربة مشتركة ضد المعتدى لجأوا إلى اللجان وأضاعوا وقتاً ثميناً استغلته الدولة المعتدية لصالحها .

انجلترا والعقوبات الاقتصادية :

ولقد همت إنجلترا في هذه الأزمة بالوقوف إلى جانب الميثاق والقانون مخالفة بذلك موقفها السلبى فى العصبة منذ فرار الولايات المتحدة من العصبة وإحكامها إغلاق الباب من خلفها ، فأعلن وزير خارجيتها فى خطبة له « أن الشعب البريطانى مصمم على أن يقوم بالتزاماته بمقتضى ميثاق العصبة بكل قوة وحزم وأنه يدعو زملاءه فى المجلس إلى مساهرة بريطانيا وإلا تهدمت القنطرة الرئيسية التى تربط بريطانيا بأوربا » مشيراً بذلك إلى الروابط التى كانت تربط إنجلترا وفرنسا البلدين الديمقراطيين العظميين اللذين يستطيعان بتضامهما أن يردعا العدو و يصونا السلام .

وبقى العالم ينتظر أن تستجيب فرنسا لهذه الدعوة فيقوم البرهان ناصعاً على أن الميثاق على رغم خروج ألمانيا واليابان يحميه اجماع من الشعوب الديمقراطية لا تستطيع دولة ما أن تغمض العين عن مدى قوته أو تتجاهل مغبة مخالفته .

ولسكن والأسف فسرعان ما ظهر الخلاف فى الرأى بين الدولتين الديمقراطيتين فقد زار « لا فال Laval » وزير الخارجية الفرنسية روما فى يناير سنة ١٩٣٥ واجتمع « بمسولينى » وبدأ للناس أخيراً أن الحكومتين الكاثوليكيتين اللاتينيتين تستطيعان أن تتجاهلا ماضيهما القريب وأن تتفقا ضد العناصر الشيوعية فى شمال أوربا . ومهما يكن من أمر فقد وضح من هذه المقابلة أن فرنسا لا تعارض سياسة إيطاليا فى شرق أفريقيا ما دامت إيطاليا ساكنة ولو مؤقتاً عن طلباتها فى تونس وقورسقة وسافواى . وبهذا تصدع الاجماع بين أعضاء مجلس العصبة وذهبت صيحة إنجلترا لنجدة الميثاق وردع المعتدى صرخة فى واد .

وقد كان تنفيذ العقوبات الاقتصادية ضد إيطاليا من أقوى العوامل التى ساعدت على إثارة حماسة الشعب الإيطالى وتصميمه على المضى فى تنفيذ خطته الحربية وتحدى العصبة مهما كلفه ذلك من تضحية وحرمان . وفعلاً بدأت

الحرب في أكتوبر سنة ١٩٣٥ ولم تستطع الجبهة أن تقف طويلاً أمام جحافل إيطاليا ومعداتها الحربية الحديثة البرية والجوية وغيرها من الأسلحة غير المشروعة التي بعثت بها إيطاليا لاحتلال واستعمار أثيوبيا ، وقد وصل عدد جيوشها إلى ٥٠٠.٠٠٠ جندي قتم لها النصر بعد ستة أشهر في مايو سنة ١٩٣٦ وضمت أثيوبيا إلى التاج الإيطالي وأعلن ملك إيطاليا نفسه إمبراطوراً على أثيوبيا ولم يسع الدول سوى مسح عرق الخجل ومواجهة الأمر الواقع والاعتراف بالامبراطورية الجديدة التي أنشأتها إيطاليا في شرق أفريقيا متحذية في ذلك بريطانيا والعصبة والعالم كله .

نجاح إيطاليا وتوطيد سياسة المحور :

وقد بقيت إيطاليا في العصبة تحول بصوتها دون اتخاذ قرارات إجماعية ضدها حتى إذا حققت أغراضها جميعاً قدمت في سنة ١٩٣٧ إنذارها للعصبة بالخروج ، فكان خروجها من العصبة وتحديثها لقراراتها ونجاحها في مشروعها الضربة التي أصابت العصبة في الصميم . ووقفت فترة تذبذبت فيها بين النجلترا وألمانيا ولكنها جنحت في النهاية إلى ألمانيا التي ناصرتها في أيام محنتها وكانت أول علامات الاتفاق بين الحكومتين الدكتاتوريتين انضمام إيطاليا في سنة ١٩٣٧ إلى ميثاق « مناهضة الشيوعية الدولية Anticomintern Pact » الذي أبرمته ألمانيا واليابان في سنة ١٩٣٦ للقضاء على نشاط الشيوعيين الدوليين .

وقد اعتبر هذا الميثاق بمثابة معاهدة موجهة ضد الدول الديمقراطية وعلى رأسها بريطانيا . وقد توثقت العلاقات بين إيطاليا وألمانيا لأن كليهما كانت تمتعت شروطاً صالحاً فرياسيل وتربص الفرصة لنقض شروطه ، وكليهما كانت تعمل في الشرق الأقصى وفي البحر المتوسط وفق سياسة واحدة ، فالأنتان متفقتان مع اليابان ضد الشيوعية في روسيا والصين وكليهما تعمل في

البحر المتوسط إلى جانب الوطنيين في أسبانيا ضد الشيوعيين ، وأهم من ذلك كله أن الحكومتين كانتا تسخران من مبادئ السلم والديمقراطية وتمتقان ميثاق عصبة الأمم ، وكان نظام الحكم في البلدين أساسه الوطنية الاشتراكية التي تسلب الفرد حريته واستقلاله وتجعل منه آلة حربية صماء تسخرها الحكومة فتفنى الأداة ويحميا حكم الفرد .

لذلك اقتربت المسافة بين طرفي المحور « برلين — روما » فبدأ هتلر بزيارة مسولينى في مايو سنة ١٩٣٨ ورد له مسولينى الزيارة في أغسطس سنة ١٩٣٨ . وفي ٢٢ مايو سنة ١٩٣٩ وقعت المعاهدة في برلين بين ألمانيا وإيطاليا لمدة عشر سنوات وقد نص فيها على أن الدولتين تضمان قواتهما في سبيل الاحتفاظ بالسلم وأنهما يتبادلان المشورة والبحث باستمرار في كل ما يخص السياسة الدولية ، وقد وضح بعد ذلك أن « المجال الحيوى » الذى كانت تقصده ألمانيا يقع في وسط وجنوبى شرقى أوروبا وأن إيطاليا تريد ألمانيا ومنطقة البحر المتوسط .

وعلى أثر نجاح إيطاليا وانتصارها على العصبة في أثيوبيا مضت حليفها ألمانيا في تنفيذ برنامج التسلط الذى وضعته وأعدت له العدة منذ قيام الحكم النازى بها فاعلنت التجنيد الاجبارى سنة ١٩٣٥ مخالفة بذلك شروط معاهدة فرساي وفي سنة ١٩٣٦ احتلت جيوشها أرض الرين وأقامت فيها القلاع والحصون تخالفت بذلك عهد « لوكارنو » سنة ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩٣٨ ضمت النمسا وفي سبتمبر سنة ١٩٣٨ اعتدت على تشيكوسلوفاكيا ، وفي مارس سنة ١٩٣٩ أخذت إيطاليا نصيبها من الغنيمة في أوروبا فاحتلت جيوشها البانيا . كل ذلك والعصبة شاخصة تترنح من أثر صدمتها في أزمة الحبشة فلم تحرك ساكناً حتى إذا دنت ساعة الكارثة العظمى في أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ ربدأت أوروبا تحترق كانت العصبة تغط في النوم !

لفضل السياسيين

أهداف المستقبل

تأسس العقائد السياسية :

لما اجتمعت الجمعية العمومية للعصبة في يولية سنة ١٩٣٦ وكانت قد خرجت مهزومة أمام تحدى إيطاليا تسأل رئيس الجمعية إذ ذاك « ده فاليرا De Valera » رئيس حكومة إيرلنده مخاطباً ممثلى الأمم « أبيت الدول الصغيرة الممثلة هنا اليوم دولة لا تشعر فى أعماق نفسها بأنها عرضة لأن ينزل بها غداً ما نزل بأثيوبيا وأن الطمع والجشع قد يدفعان إحدى جاراتها الأقوياء إلى محاربتها وتدميرها ؟

والحقيقة أن مثل هذا الشعور كان مستولياً على جميع الدول الصغيرة والكبيرة فى وقت معاً، وأخذ ممثلو الدول فى العصبة يبحثون وينقبون عن طريقة تعيد الثقة إلى العصبة وتحبى موات الميثاق ولكنهم بعد جهد لم يجدوا فى الميثاق نفسه شيئاً يذكر فيحتاج إلى تحويل أو تعديل وأدى بهم النقاش إلى الإقرار بأن فشل العصبة كان سببه عدم تطبيق الدول لنصوص الميثاق وقرارات العصبة بروح الصدق والولاء والإخلاص . فإن العصبة لم تكن يوماً حكومة عالمية تصدر القوانين ولكنها الهيئة الدولية التى تقترح وتوحى إلى الحكومات ، وهذه وحدها هى التى تصدر القوانين تنفيذاً لما تشير به العصبة . فإذا لم تسكن الدول مقتنعة عن عقيدة خالصة بما تقرره العصبة فإنها ستتراخى بطبيعة الحال فى تنفيذ هذه القرارات بل قد تهمل تنفيذها إن استطاعت .

لذلك كان من أهم الضمانات التى يجب اشتراطها لصيانة السلام تناسق العقائد

السياسية التي تدّين بها الشعوب المشتركة في أية هيئة دولية تعمل لتأييد السلم بين الدول . ولقد قدر واضعو ميثاق العصبة بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى أن روح الديمقراطية ستسود العالم حتماً وخاصة بعد أن انمحي النظام الإمبراطوري في ألمانيا وتحول نظام الحكم فيها إلى نظام جمهوري ديمقراطي صحيح . ولم يقدروا أن تجتمع في العصبة يوماً حكومات تتباين نظمها وتختلف أساليب الحكم فيها ذلك الاختلاف الذي أدى إلى الكارثة الأخيرة .

ولم يكن عبثاً ما جاء في ميثاق العصبة من اشتراط تمتع الدول المشتركة فيها بالحكم الذاتي التام . ولو حافظت العصبة على تنفيذ هذا الشرط بمعناه الصحيح ما استطاعت حكومة دكتاتورية كحكومة إيطاليا الفاشستية أن تصبح يوماً عضواً في العصبة تتمتع بمزاياها من جهة وتتخذها من جهة أخرى وسيلة إلى تنفيذ مآربها وخاصة الحرية منها اطمئناناً منها إلى عدم استطاعة العصبة أن تحشد قوة كافية لردعها . ولكن الدول تساهلت في تفسير شرط التمتع بالحكم الذاتي التام وأطلقوه على مجرد الاستقلال حتى لو كان ناقصاً . ومتى وجد الخلاف في المعتقد السياسي انعكس ظل هذا الخلاف ووضعت آثاره في جميع الأحكام والقرارات التي تتخذها العصبة وضاعت القوة التي لا مصدر لها سوى الإجماع .

قد يقال ولكن كيف نوفق بين مبدأ شمول العصبة للجميع واشتراط التجانس في الاعتقاد السياسي . والجواب عن ذلك سهل وهو أن الشرط المهم لنجاح العصبة أو أية هيئة دولية تشبهها هو الاتفاق والانسجام لا الشمول والتعميم . ومتى شعرت الشعوب التي تؤيد الدكتاتورية مثلاً بحاجتها إلى المزايا التي تعود عليها من الاشتراك في العصبة عملت جاهدة على إصلاح نظام الحكم فيها . وهل تستطيع دولة بلغت ما بلغت قوتها وثروتها أن تزهد في خدمات الهيئة الدولية للبريد مثلاً فتخرج من اتحاد البريد أو اللاسلكي ؟ لا يمكن تصوّر ذلك . كذلك

يجب أن تكون المزايا والخدمات الإنسانية العامة التي تؤديها جامعة الأمم لأعضائها من الخطورة والقيمة بحيث لا تستطيع دولة مهما كانت أغراضها أن تستغنى عنها بالعيش في عزلة عن العصابة . بذلك وحده تتخلص الشعوب من أساليب الحكم التي لاتوافق الديمقراطية الصحيحة كما تخلصت أو كادت من نظام الحكم الأوتقراطي الذي كان فاشياً في الماضي .

السيادة القومية الطامنة :

من أظهر عيوب العصابة حرص الدول على تمتعها بكامل سيادتها مع وجودها في العصابة . وهل يرجى نجاح هيئة أو جمعية تنتظم أعضاء يتمتع كل منهم بكامل حريته حتى في تنفيذ القرارات التي توافق عليها الهيئة العامة بالأكثرية أو بالاجماع ؟ ما قيمة مثل هذه الهيئة ؟ لاشيء مطلقاً . لقد بالغوا في التمسك بحق السيادة التامة لكل حكومة حتى للحكومات التي أنشأوها عقب الحرب العالمية الأولى، وكان أول ما يجب اشتراطه على مثل هذه الحكومات الصغيرة الناشئة أن يحموها ضد مرض التسلح فيحددوا قواتها تحديداً دقيقاً ، ويصونوها من الأزمات الاقتصادية فيفرضوا عليها نظام التعاون التجاري والجرمكي بينها وبين جاراتها بدلا من تركها حرة طليقة تقيم الأسوار وتفرض الضرائب الجرمكية ونحو ذلك مما كان له أسوأ الأثر في إفساد الجو الدولي .

والحقيقة أن الشعوب بعد انتهاء الحرب العالمية اندفعت في تيار الوطنية الضيقة بكامل قوتها ، ولم يكن هذا مستغرباً ما دام المبدأ الذي أعلنته الولايات المتحدة قبل نهاية الحرب وانسأقت وراءه الشعوب هو مبدأ « حق تقرير المصير » ، وناهيك به من مبدأ يلهب الإحساس الوطني ويجعل مصالح الوطنية الضيقة فوق كل اعتبار .

وليس من شك في أن مبدأ تقرير المصير قد أساء إلى قضية السلم العام بقدر

ما أفادت منه الشعوب المظلومة . فقد حرك الأقليات في الدول المختلفة وأثار فيها الرغبة والطموح إلى الاستقلال وبدلاً من التآلف والتعاون الذي كان يبتغيه العالم نشأ النزاع والتآمر والتحاسد وظهرت حركات الانفصال التي استغلتها الدول الدكتاتورية وأفادت منها أياً فائدة . وليس ببعيد عن الأذهان ما تذرعت به ألمانيا سنة ١٩٣٨ في نزاعها ثم حربها مع تشيكوسلوفاكيا من مناصرة أقلية « السوديت » الألمانية لها .

ولقد كان ظهور الدول الصغرى عقب الحرب الكبرى الأولى تطبيقاً لمبدأ تقرير المصير مدعاة للإيقاع بين الدول الكبرى فكانت بولنده وفنلنده ودول البلطيق تتأرجح في سياستها بين روسيا وألمانيا كما كانت دول البلقان تنحاز بعضها نحو المحور وبعضها نحو الحلفاء .

ومن الخطأ البالغ إذا أريد لقضية السلام العام فلاح أن يعاد تقسيم العالم إلى دول صغيرة وفقاً لمبدأ الوطنيات بل لا يحيص هذه المرة من تطبيق « سياسة الاتحاد » التي ينشدها العالم وذلك بتأليف اتحادات تجمع الشعوب الصغيرة المتجانسة جغرافياً والمتفقة لغة أو ديناً أو تقاليد كل ذلك أو بعضه .

إن اتحاد شعوب العالم في نظام سياسى واحد من الأهداف البعيدة التي تعمل الأمم لبلوغها عاجلاً أو آجلاً . فقديمًا اتحدت الأسرات وكونت القبائل ومنها تكونت الإمارات ثم الممالك والدول الكبرى ، وهما نحن أولاء نلمح في الأفق الدولى بوادر الاتجاه الجديد نحو التعاون الدولى والوحدة العالمية المنتظرة . ومتى تحقق ذلك حلت الاتحادات محل الدول وأصبحت الدولة تدريجاً كالأسرة والقبيلة والإمارة في الماضى : مجرد اصطلاح اجتماعى أو سياسى تعتز به الشعوب شكلاً وفى الموضوع يظنى عليه اسم « الاتحاد » أو « الجنس » أو « العالم » .

الضمان الإقليمي :

نصت المادة العاشرة من الميثاق على الضمان الإقليمي والتأمين المشترك لأعضاء العصبة . وبمقتضى هذه المادة تعهدت كل دولة بأن تحترم الاستقلال السياسى لزميلاتها وتحافظ على سلامة أراضيها ضد كل اعتداء . وترك المجلس أن يقرر ما يراه من الإجراءات للوفاء بهذا الالتزام إذا وقع الاعتداء أو خشى وقوعه . ومع أن هذه المادة كانت عصب الحياة لميثاق العصبة فإن الشرط الأخير منها قد ترك مبهماً وغير محدود إرضاء للرأى العام الأمريكى الذى أبى أن يقبل نظرية التورط أو الاشتباك فى السياسة الأوربية إلى درجة قد تدعو إلى دخول الولايات المتحدة الحرب من أجل أوربا ، وكانت هذه المادة من أسباب عزلة أمريكا عن العصبة .

وكما أن هذه المادة كانت سبباً فى إبعاد الولايات المتحدة فإنها أيضاً أغضبت الدول التى كانت تشكو من معاهدة فرساي وتترقب الفرص لتعديلها بأية وسيلة . ولم يكن من العدل والإنصاف فى شىء أن تعمل تسويات من جانب واحد وتملى على الآخرين أملاء ثم يحكم إغلاق المنافذ والأبواب عليهم حتى لا يجدوا منها مخرجاً . وإذا كانت للتاريخ دروس صادقة لا تخطئ فأولها وأهمها أن العالم فى حركة دائمة وتطور قد يكون غير محسوس ، ولكنه متواصل لا ينقطع وقد يكون التطور إلى الأمام أو إلى الخلف أو إلى أعلى أو إلى أسفل ولكنه على كل حال حركة دائمة لا تقف . إذن فمن العبث والغفلة أن تقيد الشعوب والأجيال بتسويات أقليمية أو سياسية سواء أوافق عليها الطرفان أم أملاها طرف واحد دون أن يترك منفذ لتعديلها وإعادة النظر فيها . حقيقة نصت المادة السادسة والعشرون من الميثاق على طريقة تعديل مواد الميثاق ولكنها اشترطت شروطاً جعلت التعديل فى حكم

المستحيل تقريباً إذ اشترطت موافقة جميع أعضاء مجلس العصبة أولاً وأكثرية الجمعية العمومية ثانياً .

من ذلك نشأ جهود الميثاق وخيبة أمل الدول المهزومة في الحرب العالمية الماضية ، بل بعض الحلفاء كإيطاليا ، في إمكان تعديل التسويات الإقليمية القائمة إذ ذاك . وكما كان تاريخ القرن التاسع عشر بعد مؤتمر فيينا كله محاولات من الدول والشعوب للتخلص من قرارات مؤتمر فيينا وتسوياته الإقليمية ، كذلك كان تاريخ القرن العشرين بعد سنة ١٩١٩ إلى الحرب الحاضرة : كله محاولات لهدم معاهدة فرساي ، فجدد بنا بعد تجربة الحرب العالمية الثانية ألا تقع في أخطاء الماضي فيمنص في معاهدة الصلح الجديدة على ضرورة إعادة النظر فيها بعد فترات معينة تطول أولاً ثم تقصر تدريجاً ..

الهيئة التنفيذية :

والآن ننقل إلى النقطة التي استعصى على مجلس العصبة حلها وهي القوة الحاكمة التي تستطيع تنفيذ قرارات العصبة . ويحسن بنا في هذا المقام أن نعرض الماضي فإنه لما كان المؤتمر الأوربي قائماً في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان من السهل على الدول الكبرى التي كان يتألف منها المؤتمر أن توحد الرأي فيما بينها على سياسة عملية واحدة يرتبط بها الجميع ويعملون على تنفيذها . وإذا تعذر الاتفاق فيما بينها وتخلفت عن الإجماع دولة أو أكثر لم تجد الدول الأخرى صعوبة في تنفيذ ما استقر عليه رأى المؤتمر . فقد اتفقت الدول بمعاهدة لندن سنة ١٨٢٧ على التدخل في حرب الاستقلال الإغريق ضد تركيا ، ولم يتخلف سوى النمسا وأرسلت كل من إنجلترا وفرنسا قواتها البحرية والبرية لمعاونة الإغريق ثم تدخلت روسيا منفردة وقامت الحرب بينها وبين تركيا وانتهت بانهزام تركيا وتحققت أغراض اليونانيين في الاستقلال . وفي سنة ١٨٤٠ اتفقت الدول بمقتضى

معاهدة عقدت في لندن أيضاً على مساعدة تركيا ضد «محمد علي الكبير» في مصر ولم تشذ عن الإجماع سوى فرنسا . وفعلًا أرسلت كل من إنجلترا والنمسا قوات برية وبحرية لمحاربة محمد علي عند سواحل الشام ومصر وأرغم على قبول شروط الصلح مع السلطان .

ولما قامت ثورة سنة ١٨٤٨ في فرنسا وانهدركن سياسة «مترنخ» لم يبق المؤتمر وجود يذكر وعادت الدول الكبرى تحارب بعضها بعضاً كما حدث في حرب القرم حتى إذا كانت الحرب البلقانية في سنة ١٩١٢ بعثت فكرة المؤتمر من جديد في لندن بفضل مساعدة «لورد غراي» وزير خارجية إنجلترا الذي حاول أن يتخذ من هذه المناسبة وسيلة لحياة جديدة للمؤتمر لكي يستخدمه في منع وقوع الحرب العالمية الأولى ، لكنه لم يفلح وجهه الألمان بسياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى وهي السياسة التي كثيراً ما تذرعت بها إنجلترا في القرن التاسع عشر .

أما في نظام العصبة ، فقد نصت المادة الرابعة على أن يتألف مجلس العصبة وهو الهيئة التنفيذية لها من ممثلي الدول الكبرى التي تحالفت في الحرب ، يضاف إليهم أربعة من ممثلي سائر الدول في العصبة ، وقد أخذ هذا العدد ينمو حتى أصبح في آخر الأمر عشرة . وظاهر أن وجود مثل هذا العدد الكبير من ممثلي الدول الصغرى أو المتوسطة إلى جانب الدول الكبرى كان من شأنه أن يحد من حرية الدول الكبرى ، ويجعلها تلجأ في بحث مسائلها المهمة إلى أساليب لا تدخل مباشرة في نطاق أعمال العصبة ، أو إلى الاتفاق مبدئياً فيما بينها خارج جدران المجلس ؛ وفي كلتا الحالتين كانت الدول الصغيرة الممثلة في المجلس تشعر بمرارة أليمة ، تحملها على الاعتقاد بأن المساواة في العصبة خرافة .

وهذه هي الحقيقة المرة ، فالدول الكبرى بما لها من قوة مادية ونفوذ أدبي ،

ستبقى صاحبة الكلمة العليا ، سواء في العصبة أو في أية هيئة دولية تشبهها ، وهي التي سينفطح بها أولاً تنفيذ سياسة التأمين المشترك وفق ما جاء في الميثاق ، أو تأدية أعمال « البوليس الدولي » إذا ما أنشئت هذه الهيئة . إذن وجب أن يعهد بالقوة التنفيذية إلى هيئة صغيرة تستمد قوتها من مجموع الدول ، ولكنها تقتصر على أقل عدد ممكن منها حتى يؤمن الخلاف بينها .

وإذا كان نظام العصبة قد عجز عن الوفاء بواجب ردع المعتدى فإن الذنب في ذلك لم يكن ذنب العصبة ولكنه ذنب الرأي العام الذي لا يسوِّغ لحكوماته الدخول في حرب من أجل شعب آخر ليس له مصلحة عاجلة في مناصرته . هب أن مجلس العصبة في سنة ١٩٣١ دعا بريطانيا إلى إرسال أسطولها عبر المحيط الهادئ لردع اليابان ومعاونة الصين . أكان الرأي العام البريطاني الذي تستند إليه الوزارات الإنجليزية يناصر مثل هذه السياسة وتقدم الأمة على تنفيذها بكامل إرادتها وعزيمتها حتى لو لم تتحرك ألمانيا لنصرة اليابان ؟ لا بالطبع . لأن الشعوب لا تتحمس للحرب لجرد الاعتبارات الدولية أو الاقتصادية إذا لم يكن لهذه الاعتبارات غطاء يصنع محلياً ويعرف بالكرامة والشرف الوطني وهو غطاء لا يمكن استيراده من الخارج حتى ولا من « جنيف » !

على أن واضع ميثاق العصبة كانوا يظنون أن قوة الرأي العام من وراء العصبة ستكون كافية مع مضي الوقت لردع الدولة المعتدية ومنعها من الاسترسال في مناهضة الرأي العام الدولي ، وأن الحال في المستقبل لن تدعو إلى استخدام القوة ضد المعتدى . وفات واضع الميثاق ومن يناصرهم في هذا الرأي أن كلمة « الدولية » نفسها Internationalism كلمة حديثة لم تدخل قواميس اللغة إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأن فكرة التعاون السياسي بين الدول لا تزال

في طفولتها ولم تلق من الحكومات والشعوب ما يساعد على التدرج في توسيع الفكرة وتوطيد تعاليمها بين الناس .

ولا بد من مضي سنين طويلة حتى يفضج التعاون السياسي بين الدول وينشأ الرأي العام الذي نعتمد عليه في تنفيذ القرارات الدولية . ولا بدّ دون ذلك من تمرين الشعوب على قبول الآراء والنظم الجديدة . فمن أجل فكرة التسامح الديني قامت الحروب بين الشعوب قرنين أو ثلاثة قرون ولم يزل أثر التعصب الديني باقياً حتى اليوم ، ومن أجل الحرية والاستقلال وتكوين الوحدات القومية كالتحت الشعوب سنين طويلة ولا تزال هناك شعوب ترزح تحت نير الاستعباد ولا تتمتع باستقلال أو وحدة قومية .

لقد أنشأت الحكومات « البوليس المدني » لصيانة الأمن داخل البلاد منذ سنين عدة وتكون رأى عام مستنير في كثير من البلاد ومع ذلك لم نصل بعد إلى حالة من الاستقرار والأمن نستطيع معها الاستغناء عن البوليس المدني ؛ فكيف يمكن ونحن في مستهل تعاوننا السياسي الدولي أن نعتمد على قوة الرأي العام وحده ونستغنى عن « بوليس دولي » يضمن السلام بين الدول ويحافظ عليه ؟ لا بدّ للعالم إذا أردنا السلام والأمن من « بوليس دولي » قوى يخافه الجميع ، وتخشاه لصوص الدول التي تسطو على الأمم فتسلبها أعز ما لديها وهو استقلالها ومالها وبنوها .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن اتفاق الدول العظمى هو الذي يكفل وجود هذه القوة البوليسية . أما الدول الصغرى فإنها تخوفها من الدول الكبرى ولأن قواتها ومواردها محدودة ستتهرب بكل الطرق من تنفيذ العقوبات وخاصة الحربية منها ضد الدولة الكبرى المعتدية . ولقد اجتمع وزراء الخارجية للدول الشمالية : هولندا وبلجيكا والدنمرك والسويد والنرويج وفنلندا في يولييه سنة ١٩٣٨ عقب

ما لمسوه من تحدى إيطاليا وألمانيا للعصبة وأعلنوا أنهم غير ملزمين بتنفيذ المادة السادسة عشرة من الميثاق لأن ضخامة التسليح في بعض الدول يجعل قيامهم بالتزاماتهم في حكم المستحيل عليهم ولأن تدخلهم ضد إحدى الدول يعتبر انحيازاً إلى جانب دون جانب آخر وهو أمر ينافي روح العصبة .

ويظهر أن فكرة البوليس الدولي قد أخذت بها الدول المتحالفة أخيراً كما يتبين من الاقتراحات التي وصل إليها مندوبو بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا والصين في مؤتمر « درمباتون أو كس Dumbarton Oaks » من ضواحي واشنطن الذي انعقد في أكتوبر سنة ١٩٤٤

وقد جاء في هذه المقترحات ما يلي :

١ - لكي يستطيع جميع أعضاء الهيئة الدولية أن يشتركوا في صيانة السلام الدولي يجب عليهم أن يتعهدوا بأن يقدموا ما يلزم من القوات المسلحة أو التسهيلات أو المساعدة اللازمة لصيانة السلام والأمن الدوليين ويجب أن يحدد عدد القوات وأنواعها في اتفاقات خاصة تعقد لهذا الغرض .

٢ - ولكي يتسنى للهيئة الدولية اتخاذ التدابير العسكرية العاجلة يجب على أعضاء الهيئة أن تكون لديهم — على قدم الاستعداد — أفواج جوية مخصصة للقيام بالعمل الدولي . ويعين مجلس الأمن مقدار هذه القوات ودرجة استعدادها وبرنامج عملها المشترك بمساعدة لجنة أركان الحرب .

٣ - يتولى جميع أعضاء الهيئة بالتعاون فيما بينهم أو بين فريق منهم تطبيق الأعمال اللازمة لتنفيذ قرارات مجلس الأمن في شأن صيانة السلام .

٤ - يضع مجلس الأمن بمساعدة لجنة أركان الحرب الخطط اللازمة لاستخدام القوات المسلحة .

٥ - تؤلف لجنة أركان حرب عسكرية وظيفتها تقديم المشورة والمساعدة

لمجلس الأمن في جميع المسائل المتعلقة بالمقتضيات العسكرية لصيانة السلام الدولي وباستخدام القوات المسلحة الموضوعة تحت تصرفها وقيادتها وتنظيم التسليح وبالتجريد من السلاح . ويجب أن تتألف اللجنة من رؤساء هيئة أركان الحرب في بلدان الأعضاء الذين لهم مقعد دائم في مجلس الأمن أو ممن ينوب عنهم . ويجوز لأى عضو غير دائم أن يكون ممثلاً في هذه اللجنة إذا دعت له للاشتراك معها رغبة في تعزيز عملها وحسن اضطلاعها بمسئولياتها .

وسيجتمع مندوبو الحلفاء والدول الصديقة في «سان فرانسيسكو» بالولايات المتحدة في ٢٥ إبريل سنة ١٩٤٥ للنظر في هذه المقترحات وتقرير ما يرويه بشأن تكوين هيئة الأمم المتحدة لتأمين السلام العام .

تخفيف التسليح :

وإذا كانت الحوادث التي توالى منذ سنة ١٩٣٥ قد برهنت على عجز العصبة فيما يخص تأمين السلام بين الدول وردع المعتدى فإن إخفاق العصبة في تنفيذ الجزء الخامس من معاهدة فرساي والمادة الثامنة من الميثاق بشأن تخفيض التسليح كان إخفاقاً ذريعاً أدى في النهاية إلى تسابق الدول في الاستعداد للحرب ثم إلى الكارثة العامة . وظاهر أن الطريق الوحيد لمنع الحرب لا يكون إلا بنزع السلاح أو تخفيفه باتفاق دولى عام يدمج في معاهدة الصلح . أما إرغام الدول المهزومة على نزع سلاحها أو تخفيفه ثم ترك الدول الأخرى طليقة من كل قيد — كما وقع بعد الحرب العالمية الماضية — فأمر لا تؤمن مغيبته ولا بد أن يؤدى إلى كارثة أخرى . لذلك يجب أن تتقيد الدول جميعها بسياسة معينة فيما يخص التسليح حتى تصبح شئونه مهمة دولية تشرف عليها جامعة الأمم أو الهيئة الدولية الجديدة التي ستؤلف بعد هذه الحرب القائمة . ويكون من حق الهيئة الدولية تحديد الأسلحة

وتفتيش الموانئ والمعامل والمطارات والأندية والخازن والخافي. لتكون على يقين من تنفيذ قراراتها، وجبذا لو أبطلت سلاحى الغواصات والطيران فيما عدا حاجة الهيئة البوليسية الدولية منها .

وما دامت الهيئة البوليسية ستتولى نيابة عن مجموعة الأمم صيانة الأمن والسلام فى العالم فلا غضاضة على انجلترا من اعترافها بحرية الملاحة فى جميع البحار فى السلم وفى الحرب، وتقوم الدول التى يخولها موقعها الجغرافى التحكم فى بعض المنافذ العالمية الهامة كتركيا فى « البواغيز » ومصر فى « قناة السويس » وبريطانيا فى « جبل طارق » بحماية هذه المنافذ والحفاظة على حيديتها نيابة عن مجموعة الدول .

وإلى جانب التسليح يجب أن يعهد إلى الهيئة الدولية الجديدة بحث وتنظيم المسائل التى يهم الشعوب الوصول إلى اتفاق بشأنها حتى يصفو الجو الدولى وتنتفى أسباب اختلاف بينها وفى مقدمة هذه المسائل المستعمرات والخامات والضرائب الجركية والنقود والصحة العامة وهجرة السكان ومنهم اليهود .

جامعة الأمم الجديدة :

وأخيراً ينتهى بنا البحث إلى معالجة موضوع جامعة الأمم الجديدة أو ما يقوم مقامها ويجب أن نقرر من أول الأمر أن نظام العزلة السياسية الذى اتبعته كل من الولايات المتحدة وانجلترا فى الماضى لم يعد صالحاً فى العالم الحديث . لقد كانت أمريكا تعترز بمبدأ « منرو » وكانت انجلترا تتحصن ببحر المانش والبحر الشمالى وترى فى توثيق الروابط بينها وبين أجزاء الإمبراطورية البريطانية ما يغنيها عن الاشتباك فى مشاكل السياسة الأوربية وحروبها . ولا يزال هناك بريطانيون وأمركيون يعتقدون فى سلامة مبدأ العزلة السياسية، ولكن الحال تغيرت أخيراً وتضافرت القوى الطبيعية والعلمية على القضاء على خرافة « العزلة

المنبعة» على أثر انتشار الكهرباء واللاسلكى والطيران وتقدم المواصلات إلى درجة جعلت المسافات بين الممالك تقطع فى زمن أقصر مما كان يستلزمه الانتقال فى الماضى بين المدن المتقاربة فى المملكة الواحدة وجعل المسافة بين انجلترا وأمريكا عبر الإطالانطى تقطع بالطائرة من حيث الزمن كالمسافة بين انجلترا وفرنسا عبر بحر المانش أو القناة الإنجليزية .

ولما كانت هذه السرعة فى المواصلات مع استخدام المخترعات الحديثة قد حولت الحرب من ظاهرة محلية أو قارية إلى ظاهرة دولية عالمية وكانت قوة التدمير والتخريب فى الحروب لا يقتصر أثرها على الحصون والمخار بين والأهداف العسكرية بل تعم الانحاء وتكتسح الأرجاء ويستهدف لها النساء والأطفال والعجزة والمحايدون كغيرهم من المخابرين فقد تحولت انجلترا تدريجاً عن سياسة العزلة السياسية إلى السياسة القارية فأوثقت الروابط بينها وبين فرنسا حتى كادت فى أول الحرب الحاضرة أن تكون اتحاداً سياسياً منها ومن فرنسا لتقف الدولتان سداً فى وجه قوات ألمانيا الجائرة الجامحة .

فشل نظام العزلة :

وكذلك حاولت الولايات المتحدة التزام الحيادة فى أول الحرب الحاضرة مع معاونه بريطانيا أدبياً ومادياً ، ولكن ملابسات الحرب العالمية قد اضطرتها طوعاً أو كرهاً إلى نقض سياسة العزلة وأعلنت الحرب عقب سطو اليابان على «ميناء بيرل Pearl Harbour» فى ديسمبر سنة ١٩٤١ . وليس من شك فى أن أمريكا قد تعلمت درساً قاسياً من الحرب العالمية الماضية فلن تعود إلى سابق غلطتها فى اعتزال السياسة الأوربية . وستشارك بكامل قوتها فى تنظيم التعاون العالمى بين الدول بعد نهاية هذه الحرب التى اشتركت فيها بأكبر نصيب من حيث المال والرجال والعتاد ، وسيكون لها

حتما الإعتبار الأول في كل ما يتقرر في المحيط الدولي بعد الحرب . إذن فلا رجعة البتة لنظام العزلة السياسية بين الدول .

نظام المحالفات :

يأتى بعد ذلك نظام المحالفات السياسية وهل تغنى المحالفات عن جامعه الأمم : كانت المحالفات السياسية في الماضى لاتعقد بين الدول إلا لدرء الخطر الذى قد يصيب الدول من عدوان مملكة نمت قوتها واتسعت رقعتها اتساعاً يجعلها مصدراً لقلق جيرانها وسائر الممالك الأخرى . وكانت الدول في مثل هذه الحال تعتبر أن التوازن الدولي قد اختل نظامه وليس من طريق إلى تصحيحه إلا باتفاق الآخرين على الدولة أو العاهل الذى يتوقع منه الخطر ، لذلك تكونت المحالفات السياسية في القرن السادس عشر ضد تفوق أسبانيا في عهد الامبراطور شارل الخامس وضد تفوق فرنسا في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر في عهد لويس الرابع عشر وكان قد حاول ضم الأراضى المنخفضة وأسبانيا إلى فرنسا . وفي نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تكونت المحالفات من جديد ضد الخطر الذى كان يهدد أوروبا من ناحية فرنسا في عهد الثورة الفرنسية و نابليون

ولما انهزم نابليون وتقوض النظام الذى أقامه في أوروبا انعقد مؤتمر فيينا وتقمصت روح المحالفة المؤتمر الأوروبى « أو الكنسرت » الذى ظل يعالج مشاكل أوروبا السياسية بالفعل أو بالاسم حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر . وحينذاك ظهر خطر جديد هدد العلاقات بين الدول وقلب السياسة الدولية رأساً على عقب . ذلك أن الدول التى تكونت واتحدت حديثاً وأولها المانيا بدأت تفكر في برنامج لا تكتفى فيه بالتفوق الحربى في أوروبا فحسب فقد كانت فعلاً بعد الحرب السبعينية أول دولة حربية في العالم لا ينافسها في ذلك منافس بل فكرت في أمر أعظم

خطراً ، فقد أعلنت بلسان أمبراطورها أنها أصبحت دولة عالمية وتريد أن تعمل كإنجلترا بلوغ مرتبة التفوق العالمى ، وبدأت تنتهج سياسة جديدة فى أخذ نصيبها من المستعمرات فى القارة السوداء التى بدأ المستكشفون يجوبون أرجاءها ويلفتون إليها أنظار الدول الأوربية . وكان الرد على ذلك « الاتفاق الودى » بين إنجلترا وفرنسا ثم بين فرنسا وروسيا ، وهكذا تكونت محالفات جديدة لا للتوازن السياسى الدولى ضد المعتدى وحسب ولكن للتوازن الحربى ، وكانت النتيجة الحتمية لهذه المحالفات قيام الحرب العالمية الأولى .

وجاء ميثاق عصبة الأمم وسمح بعقد المحالفات السياسية ولكنه اشترط إعلانها وتسجيلها فى العصبة . ولت الميثاق حق ماسبق الرئيس ولسون إلى إعلانها فى نقطه الأربع عشرة وهو ضرورة القضاء نهائياً على المحالفات والدبلوماسية السرية فقد تجدد تكوين المحالفات بين الدول بعد انشاء العصبة وكان غرض فرنسا منها حرياً كما بدنا أكثر منه سياسياً ، ولذلك انتهت المحالفات الدولية تحت نظام العصبة إلى هذه الحرب العالمية الثانية كما أدت سابقتها إلى الحرب العالمية الأولى . وإذا تجددت المحالفات السياسية الدولية بعد هذه الحرب من غير ضابط لها فلا بد أن تؤدي إلى كارثة أخرى . ويجب أن نحذر من المحالفات الاقتصادية أو الاجتماعية أيضاً ، فإن تحالف ألمانيا وإيطاليا واليابان قبل الحرب الحاضرة ضد الشيوعية كان من أسباب تقام الخلاف بين هذه الدول وبين روسيا وحليفاتها وكان من أمضى العوامل التى حركت الشعوب للحرب الحاضرة .

إذن يجب أن تبطل المحالفات السياسية الفردية بين الدول سواء أكانت دفاعية أم هجومية وأن يناط بجامعة الأمم أو الهيئة الدولية التى ستنشأ بعد الحرب مهمة التعاقد السياسى والاقتصادى بين الدول ، وينتقص من سيادة الدول بمقدار هذا الحق بحيث لا يرخص للدول أن تعقد المعاهدات إلا بواسطة الهيئة الدولية .

وتعتبر أداة عصبة الأمم من أوفق الحلول لتحقيق السلام العام والتعاون السياسى بين الدول ، ولكننا نريدها هذه المرة عصبة أم قوية محترمة تملك الوسيلة اللازمة لتنفيذ قراراتها وإرغام المعتدى على الخضوع لسلطانها ، ولا يتيسر ذلك إلا بإنشاء هيئة البوليس الدولى التى سبق ذكرها . وقد قال «مستر تشرشل» فى خطبة له فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٨ « يجب أن نعلن للعالم عزمنا على توطيد أركان عصبة الأمم وتوسيع سلطانها ونوفر لها بمجهودنا القوة المسلحة التى تجعل أحكامها موضع احترام الجميع . »

وأما نظام العصبة الماضى الذى أذلها وقلل من شأنها وجعلها فى حكم جمعية كبرى لمناظرات سياسية نظرية لا تغنى ولا تؤمن من خوف فنظام لا فائدة منه . إذن فعلينا أن نعيد النظر فى نظام عصبة الأمم الذى جربناه وخبرناه وبنيناه بمجهودنا مدة عشرين عاما عرفنا فى أثناءها مواضع الضعف والقوة فيه على أن تتألف الجامعة الجديدة من مندوبين عن الشعوب المتحدة لا مندوبين عن الحكومات فحسب كما كانت الحال .

نظام الاتحادات :

يجب أن تتألف من الدول بقدر ما تسمح به ظروفها مجموعات أو اتحادات ، كل اتحاد منها يتألف من مجموعة متجانسة من الدول تجمعها وحدة الإقليم أو اللغة أو الأصل أو الدين أو التقاليد ، أو بعض هذه أو كلها . على أن يراعى فى تأليف هذه الاتحادات الاعتبارات الحربية أو الاستراتيجية ، فيكون اتحاد الإطلنطى بشعبتيه الأمريكية وعمادها الولايات المتحدة ، والأوربية الغربية وعمادها بريطانيا وفرنسا ، والاتحاد السوفيتى ، أو السلافي أو البلقاني ، وعماده روسيا وتركيا واليونان ، والاتحاد العربى ، أو اتحاد الشرق الأوسط ، ويشمل

مصر والمملكة السعودية واليمن والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، واتحاد وسط أوربا، واتحاد الشعوب الشمالية، واتحادات أخرى أسيوية وأفريقية على هذا النمط . ويرسم لكل اتحاد محيط خاص من النفوذ ، وبحال حيوى للنشاط السياسى والاجتماعى ، حتى لا تتعارض مصالح الاتحادات بعضها مع بعض ، ولا تتحول دولة أو مجموعة من الدول من اتحاد إلى آخر ، منعاً للإثارة التنافس والأطماع الإقليمية بين الدول الكبرى خاصة ، غير أنه لا يحظر على الدول عزلتها أو انسحابها من اتحادها الخاص إذا رأت في عزلتها خيراً وسلاماً لها، وهيئات أن يتأتى لها ذلك بغير التعاون والاتحاد مع أخواتها .

وفي هذه الاتحادات تحتفظ كل أمة باستقلالها السياسى وبنظام الحكومة فيها ، وتتعاون الأمم المكونة لكل اتحاد في الشؤون الاقتصادية والثقافية ووسائل التجارة والدفاع بقدر ما يتفق مع سياسة جامعة الأمم الجديدة ، ويتحقق ذلك بتكوين مجلس اتحادى يمثل جميع أعضاء الاتحاد ، ويكون من اختصاصه الفصل في هذه المسائل .

وليس تأليف هذه الاتحادات أمراً بدعاً ، فإنه نظام قائم في سويسرا وفي الولايات المتحدة وقائم اقتصادياً في اتحاد البريد والتلغراف واللاسلكى ، وسيقوم قريباً بين الشعوب العربية .

ولا ننسى أن مجموعة الأمم الحرة التى تنظمها الإمبراطورية البريطانية الآن ما هى إلا اتحاد متجانس بين دول وشعوب مستقلة لها وزاراتها وبرلماناتها ، وهذه البرلمانات هى التى تقرر حتى السلم والحرب دون ارتباط بما يبرمه برلمان إنجلترا .

ومتى تم تكوين هذه الاتحادات وتألف من مندوبيها المختارين لا المعينين مجلس جامعة الأمم أصبحت قضية التعاون والسلام العام بين الأمم في يد الشعوب

وإرادة الشعوب إذا اجتمعت كانت أقوى من جيوش الدول جميعاً ، ولو كان بعضها لبعض ظهيراً .

مؤتمر السلام المنتظر وموانيقه :

ما من مرة انعقد مؤتمر للصلح إثر حرب أوربية أو عالمية إلا أنتج الصلح حرباً أخرى أنكى وأشد إمعاناً في التخريب من سابقتها ، فما هي إلا فترة قصيرة تستجم فيها الحكومات بعد الحرب وتنسى ذكريات القتال وأهوال التدمير التي مضت حتى تعود الدول المغلوبة أولاً ثم الغالبة بعدها إلى الاستعداد للحرب من جديد ، فلا تسكاد الدول تجدد جدها في تثبيت قواعد السلام وحفظ الأمن الدولي فتخدر أعصاب بعض الدول المتغائلة وتستقيم إلى أقصوصة السلام حتى تهب عاصفة غاتية من إحدى مناطق الأعاصير الحربية فتكتسح أمامها كل ما أقيم من سياج لحفظ الأمن والسلام في فترة الصلح .

ويظهر أن ساسة البلاد المحاربة حين يجتمعون عقب الحرب لتقرير أسس السلم لا يجدون في طاقاتهم الفكرية واحتمالهم العصبى ما يمكنهم من التعمق في البحث والنظر في مسائل السلم بالعين المجردة النازرة إلى أبعد الآفاق فيكتفون عادة بفرض شروطهم على الدول المغلوبة ويقررون فيما يخص الحدود والأقليات ومصالح البشرية قرارات سريعة مبتسرة يجسد فيها العابثون بالأمن من بعد مادة صالحة لتسميم العقول وإثارة الشعور ضد السلام العام .

لذلك نرى من الخير للساسة وللإنسانية عامة أن تطول فترة الهدنة بين الحرب والسلم حتى تهدأ الأعصاب وتخف وطأة الأحقاد وتطمئن الخواطر ونرى من الخير أيضاً ألا يقتصر المؤتمر على ممثلي الدول المتحاربة فعلاً بل يجب حتماً أن تدعى إليه الدول المحايدة والدول الصديقة التي ساهمت في الحرب بمالها ورجالها ومواردها

وميولها . وليس من شك في أن الحايدين أسدّ رأياً وأبعد نظراً ، في التحكيم
والفصل في المسائل المعقدة المتشعبة التي يحتدم فيها النقاش بين الدول ذوات المصالح
الخاصة . ويتعذر بينها الاقناع والاتفاق . وهل بقي في العالم الذي تقارب وتقاشرت
أبعاده بسبب نهضة المواصلات مصالح أو مسائل لا تشبك أطرافها من قريب
أو بعيد بمصالح البشرية ؟ فكيف تسوغ الدول الحاربه لنفسها أن تستأثر
بالرأى في مؤتمر يحىء أثر حرب عالمية ابتلى فيها العالم أجمع بكوارث وأحداث
لم تخطر على بال بشر ؟

وكذلك لا نرى مسوغاً لأن يكون التمثيل في المؤتمر مقصوراً على رجال
السياسة والقانون ويترك الخبراء من ممثلى الشعوب في المجالس النيابية والنقابات
والجمعيات خارج المؤتمر . إن طبقات الشعب من العمال والصناع والموظفين والمزارعين
وغيرهم هم الذين غدوا الحرب بالرجال وأدوات القتال وأمدوه بالغذاء والكساء
والمال - وهو عصب الحرب - وهم بذلك أحق من غيرهم بأن يمثلوا في مؤتمر
الصلح لأنهم أعرف بويلات الحرب وبما ينفع الناس في الأرض ولأنهم أشد
إيماناً بقضية السلام والتعاون بين أجناس البشر .

وكما كانت النقطة الأربع عشرة التي أعلنها الرئيس ولسون قبل انتهاء الحرب
العالمية الأولى نبراساً اهتدى به العالم بعد الحرب وكبت على ضوءه الحكومات
التي اجتمعت في فرساي لتقرير قواعد السلام ، فإنه يبدو أن الشعوب والحكومات
وخاصة الصغيرة منها ستتمسك بعد هذه الحرب بميثاق الأطلنطى والمواثيق التي
تلتها وسبقته ، بل لعلها تكون أشد استمساكاً بها ذلك لأن نقط الرئيس ولسون
لم يتقيد بها سواه . أما ميثاق الأطلنطى والمواثيق التي جاءت بعده فقد ارتبطت
بها الدول المتحدة جميعاً وصار حتماً على الجميع أن يلتزموا بعد النصر تطبيق
المبادئ العامة التي أعلنوها للملا في أثناء الحرب واجتذبوا بها الشعوب .

ميثاق الأطلنطى :

وجدير بنا أن نقف على هذه المبادئ وننظر فيما قد يصيب تطبيقها من توفيق أو إخفاق . ونبدأ « بميثاق الأطلنطى » وهو الميثاق الذى أعلن عقب المقابلة التى تمت فى عرض المحيط الأطلنطى قرب سواحل « نيوفوندىلند » بين « روزفلت وتشرشل » فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤١ ولم تكن الولايات المتحدة يومئذ قد دخلت الحرب ولذلك جاءت مبادئه مهمة غير صريحة كى لا تتعارض مع مقتضيات القانون الدولى .

١ — وتنص المادة الأولى منه على أن الحلفاء لا يطمعون فى توسيع رقعة بلادهم بضم أراض جديدة إليها .

ومصدر الخطر على هذا المبدأ أن النصر قد يغرى بعض الدول الكبرى على محاولة نقضه بحجة التأمين ضد الحرب فيقترح بعضهم ضم أراض من ألمانيا أو فنلندة أو بولندة مثلاً ، وقد تصطدم مصلحة روسيا الحربية من ناحية لـنـنـجـرـاد وحدودها الغربية بحريات الشعوب التى كانت تتكون منها جمهوريات البلطيق عند قيام الحرب الحالية . فإذا ما حدث ذلك أو نحوه كان نقضاً صريحاً لهذا المبدأ ، وإذا ما تساحت الدول بنقضه فى أى إقليم انهار الأساس الأول للميثاق وهو أن الدول المتحدة إنما كانت تحارب مجردة من المطامع والغايات الإقليمية .

٢ — وتنص المادة الثانية على ألا تتم تغييرات إقليمية إلا وفق رغبات الشعوب المختصة بشرط أن تعطى الحرية الكاملة للتعبير عن هذه الرغبات .
وتشبه هذه المادة فى مؤداها مبدأ حق تقرير المصير الذى نادى به الرئيس ولسون فى الحرب الماضية .

وأكبر الخطر على هذه المادة أن يتم استفتاء الشعوب فى مصايرها استفتاء

شكلياً فلا تأتي نتيجة الاستفتاء موافقة لإرادة الشعوب الحقيقية ، كما حدث في الماضي فقد عملت ألمانيا في النمسا استفتاءً شكلياً في سنة ١٩٣٨ أسفر عن الانضمام إلى ألمانيا « الانschluss » وأكبر الظن إن لم يحاول الحلفاء النهوض بالنمسا اقتصادياً أن تتغلب سياسة الضم في النهاية مرة ثانية .

و ضماناً للحرية الكاملة في الاستفتاءات يجب أن تتولاها هيئة دولية محايدة .
٣ — أما النقطة الثالثة فتتضمن على أن كل شعب حر في اختيار نوع الحكومة أو نظام الحكم الذي يرضاه لنفسه وعلى أن المتعاقدين يرغبون في أن تسترد الشعوب التي اعتُدى عليها بالقوة استقلالها وسيادتها .

وظاهر أن حكومات الحلفاء التي تختلف نظم الحكم فيما بينها لا تريد أن تفرض نظاماً واحداً يرتضيه الجميع ، فنظام الحكم في بريطانيا برلماني عريق وحكومة الولايات المتحدة جمهورية ديمقراطية ، وروسيا شيوعية وقد تنطبق على هذه الحكومات جميعاً صفة الديمقراطية ولكن بدرجات متفاوتة وخاصة إذا أضفنا الصين إلى قائمة الدول الكبرى كما يطيب للحلفاء أن يصفوها . وكل ما نرجوه عند تطبيق هذا المبدأ أن يشمل حق استرداد الشعوب لاستقلالها وسيادتها البلاد الخاضعة للدول المتحالفة مثل الهند وتونس والجزائر ومراكش فضلاً عن البلاد الأصلية في استقلالها والتي تريد استكمال هذا الاستقلال من بعض النواحي مثل مصر وبعض البلاد العربية .

كما أن التطور الحديث في نظريات الحكم يقتضي أن تعيد الدول النظر في نظام الاستعمار بأكمله فتجعله نظاماً شبيهاً بنظام الانتخاب تشرف عليه هيئة دولية لا يقتصر إشرافها على مستعمرات الأعداء وحدها كما كانت الحال بعد الحرب العالمية الأولى بل يشمل مستعمرات الدول جميعها .

٤ — وتنص المادة الرابعة على أن المتعاقدين مع احترام التزاماتهم الحالية

يرغبون في أن تتمتع جميع الدول الكبرى والصغرى المنتصرة والمهزومة بحق التساوى في فرص التجارة والحصول على الخامات اللازمة لتقدمها الاقتصادى .

٥ — وتنص المادة الخامسة على أن المتعاقدين يرغبون في أن يصلوا إلى تعاون وثيق بين الدول جميعاً لرفع مستوى العمل والتأمين الاجتماعى .

والمهم في هاتين المادتين العمل على إيجاد تفاهم وتعاون كامل وثيق في الميدان الاقتصادى فيخف نظام الكفاية الاقتصادية الفردية من جهة وتيسر الأقوات والخامات لجميع الشعوب بأقل النفقات .

٦ — وتنص المادة السادسة على الرغبة بعدد « النازية » في أن يعيش الناس في سلام داخل حدودهم متحررين من الخوف والعوز .

٧ — وتنص المادة السابعة على أن الصلح الذى يحقق المبادئ المذكورة كفيل بأن يمكن الجميع من حرية الملاحة في البحار بدون عائق .

٨ — وتنص المادة الثامنة على أن الشعوب ستنفذ استعمال القوة في علاقاتها وترى نزع سلاح الدول التى تهدد السلام العام وتخفيف وطأة التسليح لدى الشعوب المحبة للسلام .

وأكثر الخوف على هذه المادة أن تختلف الدول الكبرى فيما بينها أو تتفق معاً وتقرر أشياء لا تقبلها الشعوب . ومن المسائل التى قد تختلف الدول بشأنها احتلال بعض أجزاء من المانيا عقب انهزامها نهائياً ، كما قد تختلف بشأن حدود بعض دول أوروبا الوسطى والشرقية ، أو إقامة حكومات ملونة باللون البلشى ، أو مسألة اليهود وفلسطين .

فإذا ما دب الخلاف بين الدول الكبرى بشأن هذه المسائل كلها أو بعضها فإن الخوف لا يلبث أن يستولى على الحكومات والشعوب ، وإذا ما تغلب الخوف عاد التسليح سيرته الأولى ومن ثم تتجمع الأسباب لحرب عالمية ثالثة .

الحريات الأربع :

وقد سبق ميثاق الاطلنطى إعلان « الحريات الأربع » المشهورة التى نلخصها الرئيس روزفلت فى رسالته إلى « الكونجرس » أو المؤتمر فى الولايات المتحدة بتاريخ ٦ يناير سنة ١٩٤١ وهى :

- ١ - حرية الكلام والتعبير فى كل مكان فى العالم .
 - ٢ - حرية الفرد فى عبادة ربه بالطريقة التى يريد فى كل مكان فى العالم .
 - ٣ - التحرر من العوز ومعناه التفاهم الاقتصادى الذى يتيح لكل أمة أن تعيش فى سلام ورغد فى كل مكان فى العالم .
 - ٤ - التحرر من الخوف ومعناه تخفيف التسليح لدى جميع الأمم حتى لا تستطيع دولة ما أن تعتدى على جارتها أينما كانت فى العالم .
- وقد يبدو أن إعلان هذه الحريات ليس بالشىء الجديد ، ولكننا إذا عرفنا أن النظم الدكتاتورية التى سادت قبيل الحرب الحالية فى أوروبا وفى بعض جمهوريات أمريكا قد عبثت بهذه الحريات وقمعتها بالقوة أدركنا أهمية المناداة بها الآن والعمل على إحيائها وتدعيم قواعدها فى كل مكان فى العالم .

مؤتمر موسكو :

وقد تلا ميثاق الاطلنطى تصريحات مهمة ارتبطت بها الحلفاء فقد اجتمع فى « موسكو » فى أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ مؤتمر من ممثلى إنجلترا وروسيا والولايات المتحدة والصين وقرروا مبدأ الاستمرار فى القتال حتى تسلم دول المحور بدون شرط أو قيد ، وقد أراد الحلفاء بهذا القرار ألا يتقيدوا فيما يخص دول المحور بما جاء من المبادئ الإنسانية الكريمة فى « ميثاق الاطلنطى » وغيره ، وأن يكون تطبيق هذه المبادئ كلها أو بعضها على دول المحور اختياراً من الحلفاء لا إلزاماً عليها ،

وبذلك يتفادون ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى إذ احتج الألمان لعدم تطبيق الحلفاء للنقط الأربع عشرة التي أعلنها الرئيس ولسون إذ ذاك وارتضاها الألمان أساساً للهدنة .

وفي هذا الاجتماع قرر الحلفاء أن تنشأ هيئة دولية في أول فرصة على أساس سيادة المساواة بين الدول المحبة للسلام تشارك فيها الدول الكبيرة والصغيرة معاً ، لتوطيد الأمن والسلام بين الدول . كما قرروا أن يتشاور المتعاقدون كلما دعت الظروف للعمل معاً نيابة عن مجموعة الأمم ، وأن يتعاونوا جميعاً في تنظيم التسليح بعد الحرب .

وقد اجتمع مؤتمر الدول المتحالفة في «دمبارتون أوكس» بواشنطن لتحقيق هذا الغرض الذي يتفق مع المادة الثامنة من ميثاق الاطلنطي . واجتمع الزعماء الثلاثة «روزفلت» «وستالين» «وتشرشل» في «يالتا Yalta» في شبه جزيرة القرم في أوائل فبراير سنة ١٩٤٥ ، وقرروا دعوة الحكومات المحبة للسلام والتي أعلنت الحرب على دول المحور لغاية أول مارس سنة ١٩٤٥ لحضور مؤتمر «سان فرانسيسكو» لبحث قواعد السلام العام بين الدول .

وجميع هذه المواد والقرارات التي لخصناها ليست قانوناً يلتزم الحلفاء تطبيقه إنما هي دستور عام وقواعد وأسس مرنة يستوحى منها الحلفاء بقدر حاجتهم الشروط التي سيقرونها مؤتمر السلام .

ولا شك أن في مقدمة المسائل التي سيتناولها المؤتمر بالبحث صيانة السلام العام ، وتأمين العالم ضد الحرب ؛ وبلى ذلك في الأهمية مسألتان مرتبطتان معاً ، هما معاملة ألمانيا بعد الحرب ونزع السلاح ، فإذا ما انتهى قرار المؤتمر إلى محاكمة مجرمي الحرب أمام محاكمهم ونزع سلاح دول المحور ثم طبق قرار تخفيف

التسليح على سائر الدول بدرجات تقررها الهيئة الدولية الجديدة ، كان ذلك تمهيداً لحل مقبول للمشكلتين .

ثم تأتي مسألة التسويات الإقليمية ، ولا بد أن يكون الحلفاء قد اتفقوا عليها أو على أكثرها في ضوء المواد والمواثيق التي ذكرناها ؛ ويهمننا من هذه التسويات مصير البلاد التي كانت لبعض الدول في أفريقية .

نصيب مصر :

وستشارك مصر في مؤتمر السلام كدولة محاربة آزرت حليفها في أثناء الحرب بكل ما في طاقتها وطاقه مؤسساتها ومواردها وشعبها ، ويكفي أن تكون موقعة « العالمين » التي كانت نقطة التحول بين الهزيمة والنصر قد دارت رحاها في داخل حدودنا ، وأن أسباب النصر ووسائله وجحافلها في تلك المعركة قد سارت وأعدت عدتها فوق أديم هذه البلاد وبين ظهراني أهلها ليكون لمصر مكان مرموق ومقام معلوم بين الدول المجتمعة في المؤتمر .

وايس من شك في أن المؤتمر سيتناول بالبحث مسائل مهمة تمت بصلة وثيقة إلى مستقبل مصر ومصالحها ، وقد نصت المادة الثانية من وثيقة الاطلنطي كما ذكرنا على « ألا تتم تغييرات إقليمية إلا وفق رغبات الشعوب المختصة ، بشرط أن تعطى الحرية الكاملة للتعبير عن رغباتها » . فهناك مسألة الحدود الغربية بيننا وبين برقة وطرابلس ، وهناك مستعمرات إيطاليا التي اقتطعتها من السودان وحق مصر في مياه النيل وروافده ، ومسائل البحر الأبيض المتوسط ، وقناة السويس ، وفلسطين ، والظيران وكلها مسائل من أمهات المسائل التي سيسمع صوت مصر فيها .

وقد جاء خطاب العرش في ١٨ يناير سنة ١٩٤٥ مؤيداً حق مصر في مؤتمر الصلح العتيد إذ قال :

« إن مصر قد حرصت على أن توفى بجميع التزاماتها الدولية ، فهي تواصل بإخلاص تنفيذ ما تتطلبه معاهدة الصداقة والتحالف التي تربطها ببريطانيا العظمى ، كما لا تألو جهداً في إنجاح قضية الدول المتحدة التي هي قضية العدل والسلام . وإن مصر بحكم ما أدت إلى حليفها وإلى الدول التي تحارب معها ، وبحكم ما تحملت من تضحيات لوائقة في أن سيكون لها صوت مسموع عند ما يحين الوقت لإعادة تنظيم العالم على أسس الحرية والإنصاف التي تحفظ له سلاماً دائماً وتبعد عنه أهوال الحرب » .

وقد سجلت مصر حقها فعلاً في الوصول إلى مؤتمرات السلام وإسماع صوتها العالم بإعلانها الحرب على دولتي المحور في ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٥

أهداف مصر

السياسية والدولية بعد الحرب^(١)

يعيش العالم منذ أكثر من خمس سنوات وسط أهوال من ألوان الحرب وتطوراتها ، وقد حوّلت الاختراعات الأخيرة الحرب الحديثة من ظاهرة محلية أو قارية إلى ظاهرة دولية عالمية لا يقتصر أثرها على المحاربين والأهداف العسكرية بل نعم الانحاء وتكتسح الأرجاء ويستهدف لها المحايدون وتخضع لجبروتها مرافق البشر إذ سخرت جميعها لخدمة أغراض الحرب .

وما دامت الحرب قائمة فكل تنبؤاتنا واستنتاجاتنا عن المستقبل رجم بالغيب لأن القواعد التي تستند إليها أحكامنا مرهونة بنتيجة الحرب النهائية وبموقف الدول المتحاربة عند إعلان الهدنة وبدء مفاوضات الصلح . ومن ماثور القول عند الإنجليز أن أول ضحايا الحرب هو الصدق ، وما دامت مهمة المؤرخ هي محاولة الوصول إلى الحق والصدق في أن تنتهى الحرب ويفك أسر الصدق يتعين علينا السكوت ولكنه سكوت عما يخص الحاضر ولنا الغناء فيما ورثناه وخبرناه من حقائق الماضي وفيما نرسمه في ضوء هذه الحقائق من خطوط ومعالم ومسالك للمستقبل مؤمنين بأن مفاجآت القدر وتقلبات السياسة وحركات الشعوب وقادتها هي التي ستعطينا الصورة النهائية لآرائنا وأحكامنا .

(١) من محاضرة ألقاها المؤلف بقاعة يورت بالجامعة الأمريكية في فبراير سنة ١٩٤٤

تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار
وأول ما يسترعى انتباهنا في موضوع شئوننا بعد الحرب الخطر الذي يتهددنا
من جراء الخلط بين السياسة الداخلية والمسائل الخارجية . لقد جر علينا هذا
الخلط في الماضي متاعب وعثرات ونكوصاً على الأعقاب وقد أدى ذلك إلى
أرجاء دستورنا وتأخير استقلالنا زمناً طويلاً . لقد كانت مسألة استقلالنا بعد
الحرب العالمية الأولى مسألة دولية بيننا وبين بريطانيا أولاً ثم بيننا وبين دول
الامتيازات ثانياً فلم تمض سنة أو سنتان على ثورتنا في عام ١٩١٩ حتى تحول
الموضوع إلى مسألة داخلية .

وتفصيل ذلك أن الإنجليز كانوا يعتقدون أن الاستقلال السياسي يستلزم
نضجاً سياسياً خاصاً وأن الطريق الوحيد المعقول للوصول إليه إنما يجيء بالسير
على مقتضى النظم البرلمانية كما يحدث في الأمم العريقة في الديمقراطية ، وعلى
ذلك أرادوا أن نبرهن أننا خليقون بحكم أنفسنا فوضع الدستور وجاء البرلمان
واقترضى منطق الحوادث إجراء الانتخابات وتكوين الأحزاب وتولى الحكم .
وبذلك انقسمنا شيعاً وأحزاباً وسرت في البلاد روح العدا والقطيعة بين
الأفراد والأسرات ورجال الحكم ونتج عن ذلك كله أثناء شغلنا عن هدفنا
الأول وهو الوصول إلى الاستقلال الحقيقي وظللنا سبعة عشر عاماً نتجاذب
أطراف الحكم ونترشق بالتهم حتى انبجست أماننا الحقيقة سافرة في النهاية
حينما تخرجت الحالة الدولية بين بريطانيا وغريرتها في البحر المتوسط إيطاليا
وكوناً جبهتنا الداخلية وظفرنا باستقلالنا الحقيقي سنة ١٩٣٦ .

وأخشى ما أخشاه بعد الحرب الحالية أن تتحول مسائلنا الخارجية إلى مسائل
داخلية يكون محورها هذه المرة « هل نحن قادرين على الدفاع عن أنفسنا » بدلا
من « هل نحن قادرين على حكم أنفسنا » .

وقد ينبغي على هذا الاختبار ظهور خلاقات جديدة تنشب بيننا فتشغل بها وتبقى مسائلنا الحيوية معلقة ردها من الزمن . فالى قادة الرأى فى هذه البلاد نزجى الرجاء بأن يكونوا مؤمنين بحق الوطن حتى لا يلدغوا من جحر مرتين وأن يعملوا متفقيين تماماً على برنامج واحد فى السياسة الخارجية يرتبط به الجميع ويعملون يداً واحدة على تحقيقه سواء كانوا داخل الحكم أم خارجه . وكذلك يجب فى سياسة الدفاع أن يتفاهم الجميع على خطط وبرامج واحدة ولهم بعد ذلك أن يختلفوا ويتساجلوا ويقنأفسوا ما شاءوا فى مسائل السياسة الداخلية وشئون الاقتصاد والاجتماع بشرط أن يفهم الجميع أن يكون الحكم للقانون لا للأفراد مهما سمى مراكرم .

بذلك وحده نستطيع أن يكون لنا مقام مرموق بين الدول وأن نحقق ما عقدنا العزم على بلوغه من آمال وأمانى عظام تسمو بنا إلى مصاف الدول العظمى .

ويحق لنا ما دمنا نرشح أنفسنا أو يرشحنا غيرنا لتبوء هذه المرتبة السامية أن نقف على كنهه الدول العظمى وتأليفها .

الدول العظمى :

ليست هناك قوانين تصدر أو قرارات تتخذ بشأن الدول التى يصح أن تطلق عليها الدول العظمى . فجميع الدول المستقلة متساوية القيمة من الوجهة القانونية . إنما يكون التمييز بينها من حيث النفوذ السياسى فقط . فالدولة العظمى هى التى تستطيع أن تغلب إرادتها وتجعل لكلامها وزناً أكثر من الدول الأخرى . ولا يستدعى ذلك أن تكون الدولة أكثر ثقافة أو أوفر ثروة أو أرق معيشة من غيرها ، وإنما تنحصر المسألة كلها فى القوة فقط ولكنها القوة التى ارتقت

بتطبيق العلم والنظام فأصبحت تمتاز على القوة العديدة أو القوة الهمجية .
وهناك عامل آخر ظهرت أهميته في السنين الأخيرة هو الرأى العام ومدى
الشعور بالمسئولية الأدبية التى تستند إليها الدولة فى تطبيق قوتها . فكل قوة
حربية مهما بلغت درجتها من المتانة والكفاية لا تستند إلى قوة أدبية موازنة من
جانب الرأى العام لا يكون لها الأثر الفعال فى تغليب إرادة الدولة .

فطنت الدول إلى ذلك فى الحرب العظمى الأولى فتألفت وزارات الدعاية —
وكانت وزارة الدعاية فى إنجلترا برئاسة « لورد نورثكليف Northcliffe » من
أهم العوامل التى ساعدت على كسب الحرب الأولى — وفطن إلى ذلك مسولينى
فى أثناء الأزمة الأثيوبية سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ فلم يحفل بقوات بريطانيا التى
كانت تناوئه لأنه كان يعلم تمام العلم أن من وراء القوات البريطانية فى البحر
وفى البر إرادة الشعب الإنجليزى الكامنة التى كانت تتوق إلى السلام العام وتمت
الحرب فتحدثت إيطاليا بريطانيا وتحدثت عصبة الأمم وكسب مسولينى المعركة .
وقد كانت الدول العظمى بعد مؤتمر فيينا الذى عقدته الدول فى سنة ١٨١٥
على أثر هزيمة نابليون بونابرت خسفاً : إنجلترا والنمسا وروسيا وروسيا وفرنسا .
وانضمت إليها إيطاليا عقب دخولها حرب القرم إلى جانب الحلفاء سنة ١٨٥٦ ،
وفى سنة ١٨٧١ انتصرت روسيا على فرنسا وتكونت الأمبراطورية الألمانية .
أما اليابان فأصبحت دولة كبرى عقب محالقتها مع إنجلترا فى سنة ١٩٠٢
وانتصارها على روسيا سنة ١٩٠٥ ، وأصبحت الولايات المتحدة دولة عظمى
بعد انتهاء الحرب الأهلية بها سنة ١٨٦٥ وانتصارها على أسبانيا فى الحرب
الأسبانية الأمريكية سنة ١٨٩٨

ويلاحظ فى ارتقاء الدول الأخيرة إلى مصاف الدول العظمى تفوق قواتها
حربياً وبحرياً . فهل أعدت مصر من القوة ما يجعل لإرادتها وزناً تشعر به الدول
فى أثناء مفاوضاتها متى اشتركت فى هيئاتها واجتماعاتها ؟

القوة البحرية :

قد يكون لنا نفوذ ثقافى واقتصادى يذكر ، ولكن عهد الاستقلال لم يطل بنا زمنًا يكفى لتجهيز أنفسنا فى الجو والبحر والبر ، ولا مناص لنا إذا كنا حقيقة نتطلع من ثنايا تاريخنا القديم إلى المسكينة السامية التى تنتظرنا من أن نعد أنفسنا لذلك ، ولنبدأ بالقوتين البحرية والجوية فهما الدعامتان القويتان اللتان تستند إليهما الأمة فى الحرب وفى السلم ، فى شئون التجارة والمواصلات . ألا إن البحر والجو هما مهد البطولة والتفوق ، ولا سبيل إلى عظمة الأمم فى المستقبل القريب أو البعيد إلا عن طريقهما . لقد فطن محمد على الكبير إلى أهمية القوة البحرية فى نهضة البلاد ، فأولاهما اهتماماً يساوى إن لم يفق اهتمامه بالجيش حتى أصبحت مصر فى عهده الدولة الثالثة فى البحر الأبيض المتوسط بعد بريطانيا وفرنسا .

وإذا كانت إيطاليا تدعى إلى وقت قريب أن البحر المتوسط بحرها ، حتى كان الطليان يسمونه فى كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم « بحرنا » مستندين فى دعواهم هذه إلى أن سواحل إيطاليا يغمرها البحر من كل جهاتها تقريباً ، وأن الرومان القدماء قد سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله دولة رومانية استمرت عدت قرون — إذا كانت إيطاليا تزعم ذلك ، لهذا السبب وحده فإن لمصر فى البحر الأبيض والبحر الأحمر تاريخاً مجيداً فى القديم والحديث ، ففى القديم كانت مصر ترسل أساطيلها فى عهد الأميرة الخامسة والملكة « حتشبسوت » تمخر عباب البحر شمالاً وجنوباً إلى بلاد « بنت » ، وهى بلاد الصومال الحديثة ، وفى الحديث حين كانت مصر فى عهد محمد على الكبير تسيطر بأسطولها على سواحل لبنان وجنوبى آسيا الصغرى وفلسطين وكريت وبلاد العرب

والسودان، وحين احتلت جنودها في عهد الخديو إسماعيل «مصوع» و«زيلع» و«بربرة»، وحين كادت جنودها تدخل عدن وتستولى عليها لولا تدخل شركة الهند الشرقية والحكومة الإنجليزية، وحين وصلت منارات مصر على ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى جنوبي «رأس جاردفوى».

فإذا ما لجأت إيطاليا في دعواها فزعت أنها واقعة وسط الطريق في البحر المتوسط، وأنها تسيطر من الوجهة الحربية على قسميه الشرق والغرب، فإن لنا أن نعتبر أن البحر الأحمر امتداد للبحر المتوسط، وعلى ذلك تكون مصر لا إيطاليا هي القابضة على أوسط مكان في البحر وموقعها في أدق وأهم النقاط الحربية الاستراتيجية منه، وليس أدل على أهمية موقعها من وجودها في مفترق الطرق بين القارات الثلاث، وأهم من كل ذلك أنه يكفي أن تكون مصر هي المالكة لقناة السويس التي هي الشريان الحيوي للبحرين ومصدر النشاط السياسي والتجاري فيهما — لتقول بملء فيها إن البحر الأبيض المتوسط لها قبل أن يكون لغيرها. ولقد أظهرت الحرب الحالية بدرجة لا تدع مجالاً للشك مدى الخطر الذي استهدفت له مصر من ناحية البحر عند ما وقف الألمان عند «العلمين» في يونيو سنة ١٩٤٢ فلم يكن مصدر الخطر حينذاك الهجوم البري، ولكن الخطر كل الخطر أن الألمان كانوا يعتزمون السيطرة على ساحل مصر الشمالي وقطع مواصلاتها بالخارج، ثم عزلة مصر ومن بها من جيوش الحلفاء عزلاً تاماً، إلى أن ينطبق فكا الكاشة الألمانية من الشمال الشرق والجنوب الغربي!

من ذلك يظهر جلياً أن تاريخنا في القديم والحديث وأن موقعنا الجغرافي والحربي يحتم على مصر أن تولى وجهها في سياستها الدولية بعد الحرب نحو البحر الأبيض المتوسط، وأن تستعيد فيه مكائنها إن لم تكن الأولى فلتكن في الصف الأول بين دوله.

وتقتضى هذه المكانة منا معالجة المسائل الآتية وتحديد مركز مصر منها :

١ — قناة السويس .

٢ — أفريقيا .

٣ — الوحدة العربية .

١ — مصر وقناة السويس :

كانت القواعد الدولية التي تحكم قناة السويس مستمدة من معاهدة «القسطنطينية» التي أبرمتها في سنة ١٨٨٨ الدول التي يهمها أمر القناة ، وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولنده وإيطاليا وأسبانيا وروسيا وتركيا والنمسا ، ولم تكن مصر وهي صاحبة الشأن في القناة من بين هذه الدول ، لأنها من الوجهة السياسية كانت تحت سيادة تركيا ، وكانت بريطانيا تحتل البلاد عسكرياً منذ سنة ١٨٨٢

ومقتضى تلك المعاهدة أن تبقى القناة مفتوحة في السلم والحرب لجميع السفن التجارية والحربية . وأن يحظر حصرها بحرياً كما يحظر تحصين سواحل القناة ، أو القيام بأعمال حربية فيها أو على مسافة ثلاثة أميال من سواحلها ، وألا تبقى السفن الحربية التي تمر بها أكثر من أربع وعشرين ساعة .

وقد نفذت هذه الشروط بدقة في أثناء السلم وفي أثناء الحرب ، وخاصة في الحروب التي نشبت بين دول صغيرة أو بين دولة صغيرة وإحدى الدول الكبرى . أما حين تنشب الحرب بين الدول الكبرى كما حدث في الحرب العالمية الأولى ، وفي الحرب الحالية فإن انجلترا بحكم مركزها في مصر وتفوقها في البحر كانت تسيطر على القناة وتتحكم في حركة الملاحة بها . ففي الحرب الأمريكية الأسبانية

سنة ١٨٩٨ مرت السفن الأسبانية للدفاع عن جزر «الفلبين» ، وفي سنة ١٩٠٥ مر الأسطول الروسي لمحاربة اليابان ، وفي سنة ١٩١١ حين قامت الحرب الإيطالية التركية كانت القناة مفتوحة للمتحاربين .

ولم تخرق حيدة القناة إلا في حادثين كانت فيهما مصالح بريطانيا مهددة بالخطر . أما الحادث الأول فكان في أغسطس سنة ١٨٨٢ حين أرادت إنجلترا أن تفاجئ العربيين بإرسال قواتها إلى القاهرة عن طريق قناة السويس بدلا من طريق كفر الدوار وغرب الدلتا كما توقع العربيون ، وفعلت سارت السفن الحربية حاملة قوات الغزو إلى بورسعيد ، ومنها إلى الاسماعيلية . وجال بخاطر العربيين إذ ذاك أن يردموا القناة منعاً لدخول الإنجليز بسفنها ولكن «دلسبس» تمكن بدهائه أن يوهم عرابي بأن الاتفاقات الدولية تمنع إنجلترا من اختراق القناة فغير عرابي رأيه ولم يظن إلى خطئه إلا بعد فوات الفرصة .

وأما الحادث الثاني فكان في ٣ فبراير سنة ١٩١٥ حين هاجم مصر من ناحية صحراء العرب جيش تركي قادم من دمشق يريد عبر القناة ودخول مصر ، فقابلته القوات البريطانية ودمرته بعد قتال دام ساعات قليلة .

ولما قامت الحرب الإيطالية الأثيوبية سنة ١٩٣٥ مرت السفن الإيطالية الحربية والتجارية دون أى اعتراض ، غير أن جو السياسة الدولية إذ ذاك كان بحيث يسمح بإمكان إغلاقه في وجه إيطاليا ولوأعلنت مصر أو العصبة وقتئذ إغلاق القناة في وجه السفن الإيطالية التي كانت تحمل الجند والمؤن والطائرات إلى ميدان القتال فسدت خطط إيطاليا وباءت بالإخفاق الذريع .

لذلك اشتد قلق إيطاليا بعد استيلائها على الحبشة وزاد خوفها وسخطها عند ما تمت معاهدة المحالفة والصداقة بين مصر وبريطانيا في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦

فقد نص في هذه المعاهدة على أن لانجلترا أن تساعد مصر في حماية القناة وصرح لها مؤقتاً بوجود حامية عددها ١٠.٠٠٠ جندي و ٤٠٠ طيار بمنطقة القناة لهذا الغرض .

وبما أن معاهدة سنة ١٨٨٨ تقضى ألا يكون لإحدى الدول امتياز خاص بها دون غيرها ، فقد عدت إيطاليا معاهدة سنة ١٩٣٦ فيما يخص القناة خرقاً للاتفاق الدولي الذي وافقت عليه بريطانيا .

هذا كان سبب تبرم إيطاليا التي أخذت تطالب قبيل الحرب الحاضرة بضرورة إعادة النظر في شأن القناة حتى يصبح أمر الدفاع عنها حقاً دولياً تشارك فيه إيطاليا كما يحق لمندوبيها أن يشاركوا في مجلس إدارتها . ولكن فات إيطاليا ومن على رأيها من الدول أن القناة ممر صناعي ، لا طبيعي كجبل طارق أو الدردنيل ، وهو محفور في أرض مصر بأمر من حكومة مصر ، وهو ملك « لمصر » بغض النظر عن الشركة التي تديره ، وهذه الشركة نفسها سينتهى عقد امتيازها في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وحينئذ تصبح الشركة مصرية ، وما على مصر إلا أن تتفق مع الشركة على ثمن ما يتخلف من الآلات والمؤسسات .

وفي العالم قنوات صناعية غير قناة السويس وهي مملوكة لأصحابها ، ولم يقل أحد بضرورة جعلها دولية ، فهناك قناة « بناما » بين المحيط الأطلسي والهادي في يد الولايات المتحدة باتفاق بينها وبين بناما ، وقناة « كيل » بين بحر البaltic وبحر الشمال تابعة لألمانيا وقناة « ميدي » في فرنسا بين البحر الأبيض المتوسط وخليج بسكاي وقناة « كورنث » في اليونان . يضاف إلى ذلك أن مصر دولة مستقلة لها مطلق الحرية في اختيار حلفائها والتعاقد معهم على ما ترى فيه مصلحتها .

وعلى ذلك يجب أن تقوم سياستنا نحو القناة على الأسس الآتية :

١ — التمسك بحرية الملاحة فى القناة وبحلدة التامة فى الحرب والسلم .

٢ — أن تكون مصر وحدها هى المسئولة عن الدفاع عن القناة .

٣ — أن نهىء أنفسنا من الآن للاضطلاع بشئون القناة فنعمل على تكوين أسطولنا التجارى والحربى ، ونشترط على الشركة أن يحل المصريون بدل الأجانب الذين تخلوا أما كنهم بالوفاة أو بالتقاعد ، وأن يعين المصريون فى الوظائف الإدارية والفنية الكبرى التى تخلوا بالشركة حتى يستطيع المصريون أن يضطلعوا بالأعمال تدريجاً إلى أن ينفردوا بالعمل ، وبذلك تتكون النواة التى تنشأ حولها مصلحة خاصة بالقناة على نظام مصلحة السكة الحديدية ، وهذا نظام يشبه ما اتفقت عليه مصر مع الدول بشأن إلغاء المحاكم المختلطة بمقتضى معاهدة « منترو » سنة ١٩٣٧ .

٤ — يجب أن نحذر الوقوع فى فخ «الدولية» فلا نستمع إلى ما يقوله البعض من أن منافذ البحار يجب أن تكون منفعة دولية عامة تحرسها هيئة دولية ، فإنه إذا كان هذا المبدأ مفهوماً فيما يخص المنافذ الطبيعية مثل « جبل طارق » « وباب المندب » « والدردنيل » فمن غير المعقول أن يطلب إلى دولة أن تنزل عن شبر من أرضها ومائها دون رضائها ، وحتى فى المنافذ الطبيعية نشاهد الآن أن تركيا لم تستطع صبراً قبيل الحرب الحالية على التمسك بحلدة بوغازاتها ، فأخذت تحصنها وتسليحها وتتحكم فيها .

وكما حذرنا من صبغ القناة بالصبغة الدولية يجب أن نحذر من أن تكون مصر دولة محايدة فالحلدة انتقاص من استقلال البلاد وحد من حريتها فى التوسع والتحالف ولا تلجأ إليه دولة إلا إذا أنست ضعفاً وتهديداً لسيانها من جانب الدول .

٢ - مصر في أفريقيا :

من الحقائق الجغرافية الظالمة أن تحسب أفريقية بين قارات العالم القديم وفيها بقاع مجهولة شاسعة وفياف مظلمة لم يكشف عنها ولم يعرفها الإنسان المتمدين إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أى بعد كشف أمريكا بثلاثة قرون ونصف قرن وبعد كشف استراليا بقرنين .

ويحق لمصر الحديثة أن تفاخر بما ساهمت به من نصيب في سبيل كشف مجاهل أفريقية وتمدينها في القرن التاسع عشر . فقد أدى فتح السودان في عهد محمد على الكبير سنة ١٨٢٢ إلى إرسال بعثات علمية للبحث عن المعادن وأخرى كشفية جغرافية للبحث عن منابع النيل فقد وصل « البكباشى سليم » أحد ضباط محمد على البحريين في ثلاث رحلات قام بها بين سنة ١٨٣٨ وسنة ١٨٤٢ إلى خط عرض ٥ شمالى خط الاستواء قرب « غندكرو » وذلك في وقت كانت فيه منابع النيل وروافده لا تزال من الأحاجي والظلام التي تحاك حولها الأساطير والخرافات . وتعتبر التقارير والأرصاء الجوية التي أعدها البكباشى المصرى سليم أفندى من أول المستندات العلمية التي كتبت بشأن كشف مجاهل أفريقية .

أما في عهد الخديو إسماعيل فقد جددت عوامل جعلت شئون السودان ووسط أفريقية من أهم وأعظم ما اضطلع به الخديو ، فقد فتحت قناة السويس في سنة ١٨٦٩ وعادت أهمية مصر التجارية من حيث كونها أهم طريق بين الشرق والغرب أعظم مما كانت في أى عصر مضى . وظهر أن سيادة الطريق إلى الشرق ومرور خطوط الملاحة في المياه والموانئ المصرية وكشف منابع النيل كانت كلها عوامل قوية دفعت الخديو إسماعيل إلى أن يأخذ على عاتقه مهمة بسط سلطان مصر على سواحل البحر الأحمر وإدخال مبادئ المدنية الحديثة في البلاد

الواقعة على نهر النيل وروافده . وإذا كانت مصر لم تستطع الاحتفاظ ببلاد سوريا والعرب وعدن في عهد محمد على بسبب تدخل الدول فقد كان أمامها في السهول والهضاب التي تكتنف وادي النيل مجال بكر للفتح والتمدين والاصلاح .
ومما يذكر في هذا الصدد ما كتبه « لورد بوڤيل Beauvale » سفير بريطانيا في فيينا إلى المتمد الانجليزى في مصر أثناء أزمة سنة ١٨٣٩ — ١٨٤٠

« إذا كان حقاً أن غاية ما يرى إليه محمد على من سياسة إنما هو تثبيت عرش أسرته في ملكه فليس ثمة مجال أوفق له من قارة أفريقية فهناك تنقلب أوروبا صديقة له ويمكنها أن تعاهده على عدم مس سلامة ممتلكاته »^(١)

وقد استطاع الخديو إسماعيل في أقل من عشر سنوات مد سلطان مصر جنوبى خط الاستواء فى أوغندا وغرباً فى إقليم بحر الغزال ودارفور وشرقاً إلى بربرة وهرر على خليج عدن . أما زيلع فكان سلطان تركيا قد نزل عنها للخديو سنة ١٨٧٥ مقابل أتاوة سنوية . وأما مصوع وسواكن فكانتا تحت حكم الخديو بمقتضى فرمان بتاريخ ١٨٦٥ مقابل أتاوة قدرها ٣٧٥٠٠ جنيه سنوياً .

وقد كانت الحكومة التى كونها إسماعيل لإدارة السودان من القوة والمهابة بدرجة جعلت النظام والأمن سائدين فى جميع الأرجاء حتى كان السياح يجوبون البلاد وهم آمنون كأنهم فى نزهة . قال أحد المستكشفين الدكتور « شوينفورت Schweinfurth » :

« إن القوة والنفوذ اللذين كانا لمصر من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ على أراضى النيل الأعلى الشاسعة لم يتمتع بمثلهما أعظم الأمم استعماراً فى التاريخ أعنى الإنجليز والبرتغاليين ، وقد كان الأمن فى تلك الربوع السحيقة مستتباً بدرجة ليس لها شبيه من قبل ولا من بعد » .

(١) سجلات وزارة الخارجية من بوڤيل إلى هديس نوفمبر ١٨٣٩

ولكنها وأسفا كانت طفرة في الظلام أو طفرة في القارة المظلمة ! فلم يمض إلا القليل حتى أحست أنها مسوقة إلى الهاوية واضطرت إلى ترك بلاد أفنت فيها زهرة جهودها وكثيراً من مالها ورجالها فقد عزل الخديو إسماعيل مؤسس ذلك السلطان الواسع سنة ١٨٧٩ ثم وقعت حوادث الثورة العرابية في مصر ١٨٨١ — ١٨٨٢ واضطرت الحكومة إلى استدعاء معظم قوات الجيش من السودان ثم إلى تسريح الجيش المصرى بعد الاحتلال ، وبذلك مهد الطريق إلى الثورة المهديّة وإخلاء السودان وانتشار نفوذ المهدي في ربوعه مدى ثلاثة عشر عاماً حتى أعيد فتحه في أواخر القرن التاسع عشر سنة ١٨٩٨ بالاشتراك مع القوات الإنجليزية . وأخيراً نظمت شئون السودان شركة بيننا وبين إنجلترا أولاً على أساس معاهدة ١٨٩٩ وأخيراً بمعاهدة لندن ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ .

وأهم المسائل الدولية التي تواجهنا في أفريقية ما يأتى :

١ — إن حقنا في ماء النيل مسألة طبيعية حيوية تتوقف عليها حياتنا وثروة بلادنا . وإذا كنا قد اتفقنا مع حليفتنا إنجلترا على سياسة مائية معينة تتبع في السودان ونضمن بها نصيبنا من الماء بعد إنشاء خزان « جبل الأوليا » فلا يزال أمامنا الاتفاق مع أثيوبيا بشأن بحيرة « تسانا » ويتعين علينا أن ننتهز أول فرصة دولية لتسجيل حقنا كاملاً في مياه النيل وروافده وبحيراته .

٢ — لما انقطعت الصلة بين مصر وممتلكاتها في أفريقية عقب ترك السودان سنة ١٨٨٥ نشأت نظرية خاطئة كانت تقول بأن السودان وقد تخلت عنه مصر صار نهياً لمن سبق وفات أنصار هذه النظرية أن مصر بتركها ممتلكاتها مؤقتاً لم تتخل عن أى حق فيها وأن هذه الحقوق قد كسبتها إما بحق الفتح وإما عن طريق الوراثة من تركيا وقد نص فرمان سنة ١٨٧٣ على أن يحكم الخديو جميع

ملحقات مصر في أفريقية بحق الوراثة في ذريته للأكبر فالأكبر من أبنائه . فإذا كانت بعض الدول غير الخليفة قد انتهزت هذه الفرصة وأشبعت أطماعها بضم أجزاء من أملاك مصر إلى مستعمراتها فإن من الحتم علينا أن نعمل من الآن على استرداد حقوقنا من أول هيئة دولية تنعقد بعد الحرب .

ومن عجب أن نذكر أن بريطانيا قد ساعدت في الماضي بعض أعدائها أخيراً على التهام جزء من أراضيها مثل « مصوع » في سنة ١٨٨٥ . ولا ننسى أن الروابط الطبيعية التي تربطنا بالشعوب الإفريقية تجعلنا في نظرهم الشركاء المفضلين على سائر الشعوب . وهناك عامل آخر له خطره ذلك أن اطراد زيادة السكان في مصر والسودان وانتشار التعليم بين الأهالي سيضطرننا بعد الحرب إلى البحث عن مجال حيوى لنا وأظن أن بالسودان والواحات متسعاً للنفوس الطموحة النشيطة سواء من المصريين أو السودانيين الذين يؤثرون أن يسعوا في الأرض ويمشوا في مناكبها على حياة الاستكانة والقناعة بالقليل .

٣ — كانت الصحراء الكبرى الغربية تعتبر من الحدود التي لا تقهر والتي لا يستطيع العدو اختراقها ، ولكن اختراع السيارات والطائرات في أواخر القرن التاسع عشر قد أخضع الصحراء لجبروت العلم والآلات ولم تعد لها حصانتها الحربية الماضية وحين كانت العلاقات بين بريطانيا وإيطاليا ودية لم تكن مصر ولا بريطانيا تهتم إحداها بمحدودنا الغربية ، لذلك اتفقت مصر وإيطاليا في سنة ١٩٢٥ بواسطة بريطانيا على تعديل هذه الحدود بيننا وبين « ليبيا » وجعل خط طول ٢٥ شرقى جريفتش حداً فاصلاً وبذلك دخلت واحة جغبوب في حدود « ليبيا » . وقد أظهرت الحرب الحالية كيف استطاع العدو أن يتخذ من هذه الواحة قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويثب منها على حدودنا . فعلى أن نعيد النظر في حدودنا الصحراوية في ضوء التطورات الحديثة لحرب الصحراء .

لقد كان الطريق إلى تأليف هذه الوحدة ممهداً ذلولاً منذ الحرب العالمية الأولى ولكن السياسة الأوروبية التي تلت الحرب قد خيبت الآمال التي عقدها العرب على بريطانيا فبدل أن تتحقق الوحدة نبتت دويلات متجزئة متفرقة ومشاكل معقدة أنتجت عدة ثورات كادت تودي بمركز بريطانيا في شرق البحر الأبيض المتوسط .

ومسألة الوحدة العربية مسألة عاطفية قومية قبل أن تكون مسألة سياسية . والمعروف عن الخلق البريطاني أنه خلق على يتخبط ويتعثر إذا ما واجهته حركة عاطفية وطنية . فلا عجب إذا رأينا الانجليز يخطئون في سياستهم نحو العرب فقديماً أخطأوا في أمريكا وفي الهند وفي إيرلنده وفي مصر، وكما انتهى الأمر في تلك البلاد بأن فهمت انجلترا حقيقة الموقف وأذعنت له كذلك يظهر أن الأمر سينتهي ببريطانيا أخيراً فتعترف بحق الشعوب التي تتكلم اللغة العربية سواء في شرق البحر الأبيض المتوسط أو في جنوبه .

ويرجع تاريخ هذه المسألة من الوجهة الدولية إلى سنة ١٩١٥ أى في أثناء الحرب العظمى إذا استغل الحلفاء شعور العرب بضرورة الجامعة العربية ضد الأتراك حلفاء الألمان واستمالوهم إلى جانبهم واتفق سير « هنرى ماكماهون MacMahon » معتمد انجلترا في مصر مع « الشريف حسين » الذي أصبح ملكاً على الحجاز اتفاقاً سرياً وعده فيه العرب بالاستقلال بعد الحرب . وفي سنة ١٩١٦ عقدت معاهدة سرية أيضاً بين انجلترا وفرنسا عرفت باسم منشئها « سيكس بيكو Sykes Picot » وبمقتضاها احتفظت انجلترا لنفسها من أملاك تركيا في الشرق بالعراق واحتفظت

فرنسا بسوريا . وفي سنة ١٩١٧ أعلن « وعد بلفور Balfour » الذي يقضى بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

ويلاحظ أن هذه الاتفاقات السرية منها والعلمية كانت تناقض بعضها بعضاً وكانت وعوداً مبهمه وغير محدودة المعنى ، ففي الاتفاق مع العرب لم تعين حدود الدولة العربية المستقلة بالضبط ولو أن المفهوم من خطاب الشريف حسين أنها كانت ستشمل بلاد العرب وفلسطين وسوريا والعراق ، كما أن الاتفاق السرى مع فرنسا كان يتعارض تماماً مع الفكرة القائلة بإنشاء دولة عربية مستقلة إذ كيف تتكون الدولة العربية وقد اقتطعت منها انجلترا العراق وفرنسا سوريا ؟

أما « وعد بلفور » فلم يعين فيه المساحة التي سيشغلها الوطن القومى ولا عدد اليهود الذين يسمح بهجرتهم إلى هذا الوطن .

وقد كان من رأى اليهود في ذلك الوقت أن يأخذوا تصريحاً بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لهم فلم يفوزوا إلا بإنشاء وطن قومى لهم في فلسطين والفرق بين المعنيين ظاهر .

ولو أن الحلفاء بروا بوعدهم للعرب فأقاموا دولة عربية واحدة أو متحدة من بلاد العرب وسوريا والعراق وفلسطين لما قامت مشكلة الصهيونية الحالية ، لأن اليهود الذين عاشوا مع العرب كأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون أن يوزعوا أنفسهم في جهات عدة من الدولة الجديدة بدلاً من حصرهم في هذا الاقليم الضيق من الأرض .

بذلك قضى على آماني العرب وجاءت فرنسا بعد الحرب تطالب بتنفيذ الاتفاق السرى بينها وبين بريطانيا فدخلت سوريا واضطر العرب وعلى رأسهم الملك فيصل إلى الجلاء عنها سنة ١٩٢٠ . ولما دخل الفرنسيون سوريا راعوا أن يكونوا جمهورية أكثريتها مسيحية في لبنان يمكن أن توازن بها دولة سوريا وأضافوا

إلى لبنان بيروت وطرابلس وبذلك أقصوا سوريا عن البحر وأنشئوا دويلات محلية مستقلة عن سوريا «كجبل الدروز» و«إقليم العلويين» و«سنجق اسكندرونة» وإنما لجأت فرنسا إلى تمزيق سوريا هذا التمزيق لأن الشعور بالوحدة العربية كان قوياً وكانت فرنسا تخشاه بدرجة جعلتها تقسو في مناهضة الحركة ففقدت فيها بذلك المسكنة الممتازة التي كانت لها قبل الحرب .

ومما زاد السخط على فرنسا في سوريا وحتى في لبنان صديقتها تلك السياسة الاقتصادية العقيمة التي سارت عليها. فقد كان في البلاد كثير من رؤوس الأموال جاء بها السوريون واللبنانيون بعد الحرب من بلاد المهجر في أمريكا وكان يمكن استغلالها في إقامة المشروعات العامة والمصانع الكبرى ، ولكن فرنسا عرقلت هذه المساعي وقضت على حركة الإنتاج المحلي واختصت رجالها وشركاتها وجمعياتها التعاونية بكل موارد الرزق ومصادر الكسب .

وأهم ما أفادته إنجلترا وفرنسا من المسألة العربية حصولها على البترول من العراق وتوصيل الأنابيب من «الموصل» ، إلى «حيفا» في فلسطين لتغذية السفن البريطانية ، وإلى طرابلس لتغذية السفن الفرنسية قبل الحرب الحالية ، وكانت فرنسا تستورد من هذا البترول ٤٠٪ من مجموع ما تحتاجه منه .

وقد استقل الملك عبد العزيز بن سعود في بلاد العرب واستقر له الأمر في المملكة السعودية بانتصاره على قوات الملك حسين وإعلان نفسه ملكاً على الحجاز سنة ١٩٢٩ ، وقد انتهت وصاية إنجلترا على العراق بعقد معاهدة بينهما سنة ١٩٣٢ .

وعقدت مصر المستقلة مع بريطانيا معاهدتها سنة ١٩٣٦ ، واضطرت فرنسا إلى قبول استقلال سوريا ولبنان أخيراً ، ولم يبق إلا فلسطين وفيها تواجه إنجلترا مشكلة من أعقد المشكلات فإنه كما يهم إنجلترا إرضاء العالم الإسلامي بإنصاف

العرب في فلسطين يهيمها كذلك ألا تغضب ملوك المال من اليهود في أوروبا وفي أمريكا .

ولما اشتدت الأزمة الدولية التي سبقت الحرب في سنة ١٩٣٩ حاولت انجلترا حلاً لهذه المشكلة على الأسس الآتية :

أعلنت الحكومة الإنجليزية صراحة أنه ليس من خطتها السياسية تكوين دولة يهودية في فلسطين وأن الغرض الذي ستعمل له بريطانيا هو تكوين حكومة مستقلة من أهل فلسطين من الجنسين العربى واليهودى ، وذلك في مدى عشر سنين ، فإذا اضطرت إلى التأجيل أكثر من ذلك تشاورت بريطانيا مع أهل فلسطين ومع العصبة ومع الدول العربية قبل أن تصدر قرارها بالتأجيل .

أما عن هجرة اليهود إلى فلسطين فقررت ألا يزيد مجموع عددهم على ثلث سكان فلسطين أعنى نحو نصف مليون من نحو مليون ونصف وهو عدد السكان الحاليين ، واشترطت أن يمتنع اليهود عن شراء أراضى العرب إلا بتصریح خاص وفي جهات معينة .

ولما قامت الحرب الحالية انضم الجانبان المتنازعان اليهود والعرب إلى جانب بريطانيا ، ولكن ما كادت كفة الحلفاء ترجح في الحرب حتى تجددت المؤامرات والمشاكل وبدأت جمعيات الإرهاب ترفع رأسها من جديد فتزداد الحالة تعقداً ، ولا شك أن مشكلة فلسطين ستكون بعد الحرب من أدق المسائل التي تواجه بريطانيا والدول العربية .

تبقى الأسس التي تقوم عليها الروابط بيننا وبين الشعوب العربية ، فهناك روابط من أنواع مختلفة :

الأولى : رابطة الوحدة ، أو الاتحاد التام ، ومعناه ارتباط الشعوب تحت تاج واحد وتكوين شخصية دولية واحدة مثل انجلترا واسكتلندا ، والحجاز ونجد في

بعض
من

الوقت الحاضر والنمسا والمجر ، والسويد والنرويج في الماضي . وهناك رابطة الاتحاد التمثيلي أى الاتحاد الذى يجمع إمارات أو ممالك عدة ترسل مندوبيها أو ممثليها في « دياط » أو مجمع واحد يمثل الجميع ويضع قراراته لينفذها جميع الأعضاء ، ويلاحظ أنه في مثل هذا الاتحاد لا يسرى سلطان المجمع على الشعوب أو الأهالى ، وإنما تكون قراراته ملزمة للأمراء أو الملوك .

وقد كانت إمارات ألمانيا ينظمها اتحاد تمثيلي قبل توحيدها بزعامة بروسيا سنة ١٨٧١ ، وكذلك كانت إمارات الرين في عهد نابليون ، وكانت كذلك الولايات المتحدة قبل دستورها الحالى ، وقد فشلت هذه الاتحادات فشلا تاماً ويعرف هذا النظام « بالنظام الكنفدرائى Confederation » .

وهناك رابطة الولايات المتحدة أو « النظام الفدرائى Federal » ، وبه تربط الولايات أو الأقسام المتحدة معاً فتشترك في حكومة مركزية أو سلطة تنفيذية واحدة لها قوة دفاع واحدة وسياسة خارجية وتجارية واحدة ، ويترك لكل ولاية قسط وفير من الاستقلال تتمتع به في شئونها المحلية . ومتى رأى أن جميع هذه الروابط لا تصلح للوحدة العربية ، فإن العرب لا يرضون في الوقت الحاضر أن يجتمعوا تحت تاج واحد أو أن تكون لهم حكومة تنفيذية واحدة تتكلم باسمهم لدى الدول .

ونظام الاتحاد التمثيلي قد دل التاريخ على سخفه وقلة صلاحه ما دامت الهيئة التى تمثل الاتحاد لا تملك قوة تنفيذية يخضع لها أعضاء الاتحاد .

أما النظام « الفدرائى » أو نظام الولايات المتحدة فهو وإن كان أصلح هذه النظم وأوفقها من الوجهة العملية لا يوافق الروح الوطنية الفتية التى تسيطر على الشعوب الحديثة العهد باستقلالها لاسيما إذا كانت هذه الشعوب تختلف في مستواها المادى والاقتصادى كما تختلف الدول العربية .

إذن كيف السبيل إلى الوحدة؟ إنى أرى الوحدة قائمة لاريب فيها فى الشئون الثقافية وأعتقد أن فى الإمكان تعزيز الوحدة الاقتصادية وتحقيقها على مدى الأيام أكثر من ذلك .

أما فى السياسة فالسبيل إلى الوحدة يأتى عن طريق الميثاق العربى الذى يجمع بين الشعوب العربية والقريبة منها مثل أثيوبيا ، وذلك على نسق الميثاق البلقانى الذى ألفته تركيا مع رومانيا واليونان ويوغوسلافيا ١٩٣٤ ، ومثل الميثاق الشرق أوميثاق سعداباد سنة ١٩٣٧ بين تركيا وإيران والعراق والأفغان .

ولضمان تنفيذ شروط الميثاق واستمرار العمل به تؤلف لجنة دائمة تتولى مراقبته وإدارته وتتعهد أعضاءه بالإرشاد والتوجيه كما كانت تركيا تفعل فى الميثاق البلقانى .

وإنى لهذه المناسبة لأعلن شديد إعجابى بنهضة تركيا فى معظم نواحيها وبالسياسة التى اتبعتها بعد الحرب العالمية الأولى إلى الآن وأرى فى المثل التى ضربتها والأهداف التى وصلت إليها فى سياستها نبراساً وهاجاً ينبعث لنا الطريق ويعصمنا من الزلل فى سياستنا الدولية . لقد «تركت» تركيا سياستها وإصلاحاتها ، بل وتجردت من كل ما هو دولى ، فلنأخذ حذرنا ونحن لا نزال فى دور التجربة وليكن مبدؤنا بعد الحرب كما كان مبدؤنا منذ بعيد ، قبل الاستقلال وبعده : «أحراراً فى بلادنا كرماء لحفائنا» .

ملحق - ب

القومية والعالمية

في

تدريس التاريخ^(١)

أحسن رابطلة التربية إذ بدأت بحوث المؤتمر بالتكلم في موضوع تدريس التاريخ . فليس مثل التاريخ مادة أفادت من الحرب وكسبت منه بقدر ما خسرت فيه أخذانها الاقتصاد والجغرافيا والتربية الوطنية . وكل قارئ وكل دارس يهيمه في هذا الوقت الذي يعيش فيه الناس متقربين أنباء الحرب أو مستمعين إلى نذره أو مكتوين بناره وشرره — يهيمه أن يتبع مجريات الحوادث وأن يتفهم أصولها وتطوراتها ويهيمه أحياناً أن ينصب من نفسه في جلساته الخاصة أو مجتمعاته العامة أستاذاً منقّباً واقعاً على بواطن التاريخ مطلعاً على أسرار السياسة العامة — بل من الناس في هذا الزمن من يتخصص في التو والساعة في التاريخ الحربى والاستراتيجى فينقد الخطط الحربية ويقتنى الخرائط الكبرى أو يصطنعها ويرسم عليها حركات الجيوش المتحاربة ويبين اتجاهاتها وأهدافها ويحرك أعلام دولها خطوة خطوة ويوماً بعد يوماً كأنه البطل الأسباني « دون كيشوت » الذى خرج يحارب طواحين الهواء .

(١) من محاضرة ألقاها المؤلف في مؤتمر تدريس المواد الاجتماعية بالجمعية الجغرافية الملكية في يونيو سنة ١٩٤٤

وكل يدعى وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا !

والحقيقة أيها السادة أنه إذا جاز لنا نحن المشتغلين بدرس التاريخ أن نزهي على إخواننا الجغرافيين الذين أفقدتهم الحرب بعض أقسام العالم السياسية وغيرت من حدودها وشوهدت معاملها وأفسدت عليهم أطالسهم وخرائطهم أو على إخواننا الاقتصاديين والسياسيين الذين حرمتهم الحرب حرية المواصلات والتعامل وأفسدت عليهم تقودهم ونظرياتهم وحدث من حرياتهم فأنجحت من ألسنتهم وحطمت أقالهم فإن الحقيقة التي يجب أن نقرها الآن هي أن المواد الاجتماعية جميعها وهي المواد التي تبحث في تصرفات الإنسان وعلاقاته المختلفة مع أخيه الإنسان قد قصرت جميعاً عن أداء وظيفتها في خدمة المجتمع الإنساني وتعثرت في سيرها بل وارتدت على أعقابها فتأخرت أشواطاً طويلة في ميدان التنافس والتسابق بينها وبين المواد العلمية العملية .

فبينما نرى العالم المادى في تقدم مطرد بفضل الكشوف العلمية الحديثة والتغييرات الهائلة التي أصابت وجه البسيطة في السنين الأخيرة في ميدان المواصلات والصناعة والطب والحرب إذا بنا نرى أن الروابط الاجتماعية التي تربط الناس بعضهم ببعض سواء في معاملاتهم السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو القانونية تقف بهم في بعض النواحي عند ما كانت عليه في العصور الهمجية الأولى وفي بعضها تسوء وتتدهور بل وتتفكك وتتضاءل وتنحل حتى يدركها العدم وتقوم بين شعوب العالم مثل هذه الحرب الطاحنة المدمرة التي إذالم يكبح جماحها سريعاً كطريقة لتسوية الخلافات بين الدول فإنها سوف لا تبقى على هذه المدنية ولا تذر .

ليس هذا الإفلاس في العلاقات الإنسانية بين الناس وبعضهم بعض وبين

الأمم بعضها وبعض سوى نتيجة حتمية لعدم التوازن الذى نشأ بين التقدم المادى المنقطع النظير من جهة وبين التأخر أو قل العقم أو الركود الذى أصاب الناحية الإنسانية من جهة أخرى . وهم يقولون وقد يكون قولهم حقاً إن تدريس التاريخ مسئول عن هذا التدهور الذريع الذى لحق بالناحية الاجتماعية فإن التاريخ فى كل بلد يدرس للنشء وفق الخطة الوطنية البحتة التى تقدر مصلحة الوطن أولاً وتزدرى الأجنبى وتصفه بالعدوان والجشع والقسوة وبذلك ينشأ ناشئ الفتيان فيما سبقه الفكر ضيق الأمل مشبعاً بروح الكراهية للغير مدفوعاً بعامل الحماسة للوطن فوق الجميع .

وهم يقولون أيضاً وقد يكون قولهم حقاً إنه ما دام التاريخ يقدر أبطال الحروب ويعنى بالغزو والنصر فى ميادين الحرب فإن أطفالنا سينشئون متخذين أبطالهم ومثلهم العليا من بين أولئك الذين قادوا الجيوش ودوخوا الممالك وأراقوا دماء الناس فى سبيل الجحد والسيطرة وبذلك تبقى الحروب هدفاً تعمل لبلوغه الأمم التى تطمح إلى الغلبة والتفوق وبذلك تنفث آلهة الحرب وتسود وتبوء قضية السلام بين الشعوب بالخيبة والخسران .

ما معنى ذلك ؟ معناه أيها السادة أن مبدأ القومية أو الوطنية الذى ولد مع الأسرة والقبيلة ثم ساد وملك على الناس مشاعرهم منذ الثورة الفرنسية وجعلهم يضحون بكل عزيز لديهم فى سبيل تحقيق أمانهم الوطنية والذى لا يزال يوحى إلى الشعوب بأنبل المشاعر ويحدو بهم إلى النهضة والتسامح على سائر البلدان قد مستح أخيراً وأصابه العقم فى القرن العشرين فتحول إلى مبدأ ضار فاسد يدعو معتنقيه والمؤمنين به إلى كثير من الشر والعنف وإلى إثارة البغضاء والحروب بين الأمم وعلى ذلك يجب تخلص العالم من شروره وآثامه .

من السهل أيها السادة أن تقوم الأمم الكبيرة الناضجة العريقة فى استقلالها

وتكوين وحدتها القومية فتردد مثل تلك الدعاوى لأن لها في ماضيها وتقاليدها ومناعتها وتأصل الحريات في كيائها وعقائدها ما يجعلها تنسى أو تناسي أثر القومية أو الوطنية في نهضتها أو نهضة غيرها .

أما الشعوب الصغيرة الناشئة التي كبتت حيويتها، بل أغفل وجودها رديحاً من الزمن — والتي حرمتها الاستعمار والجشع الدولي أن تنعم باستقلالها وتوحيد قوميتها — هذه الشعوب أيها السادة لا تستطيع أن تقبل إنكار قوميتها وإهدار وطنيتها في سبيل إعزاز فكرة العالمية لأنها تحس أن وطنيتها هي كيائها ومصدر الحياة لها وأن الوطن والعلم والتاريخ القومي هي التراث المقدس وهي الذي تهفو له قلوب البشر وإليه تنفر الشعوب الناشئة والمغلوبة على أمرها تستلهمه القوة وتستمد منه العون على الحاضر والثقة بالمستقبل .

هل كانت عبثاً ولها تلك الدروس الوطنية الخالدة التي بشر بها رسل الوطنية في العالم وقدموها آيات بينات لمواطنيهم فرفعتهم من أجل ذلك وأمنتهم من خوف وآزرتهم من ضعف ، ثم ما هي إلا سنوات حتى كانت الصيحة بعد الموت وكان النشور بعد سكنى القبور .

من منا أيها السادة نحن الذين عشنا في الجيل الماضي يستطيع أن ينسى الهزة الوطنية التي كانت تسرى في نفوسنا ، وتكهرب أعصابنا عند ما كنا نعيش في ظل الاحتلال أو الحماية الأجنبية ، « ومصطفى كامل » يقول تحت سمع الاحتلال وبصره :

« بلادي ! بلادي ! لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناني فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر . »
ومن منا يستطيع أن ينسى الصفحة الوطنية الرائعة التي خطها « سعد » العظيم

بيده في سجل مصر الخالدة وهو يخاطب المعتمد الانجليزى والحاكم العسكرى
 وإنه ليعلم حق العلم أن من وراء كلمته التعذيب أو التشريد أو النفي الى بلد بعيد:
 « بما أنى موكل من قبل الأمة للسعى فى استقلالها فليس لغيرها سلطة تخلىنى
 من القيام بهذا الواجب المقدس لهذا سأتبقى فى مركزى مخلصاً لواجبى وللقوة أن
 تفعل بنا ما يشاء أفراداً وجماعات فإننا جميعاً مستعدون للقاء ما تأتى به بجنان ثابت
 وضمير هادىء علماً بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا للمشروعة إنما يساعد البلاد
 على تحقيق أمانينا فى الاستقلال التام . »

أ كانت هذه الدروس الوطنية وأمثالها آيات أنزلت للشعوب هنا وهناك
 لتدمير الإنسانية والقضاء على التعاون بين دول العالم أم كانت لتصفية نفوس
 الوطنيين والصعود بها إلى أسنى مراقي الفضيلة وهى التضحية بالذات فى سبيل
 إعزاز المجموع ورفع شأن الوطن ؟ أليست العالمية تتكون من وحدات وطنية ؟
 وهل يصلح المجموع إلا إذا صلح الفرد ؟

هل يعقل أن نربى أبناءنا بلغة البلاد وبأدب غير أدبنا القومى ؟ هل يمكن
 أن يحل أدب دولى أو عالمى محل الأدب الشعبى ؟ سلوا عميد الأدب فينا يقل
 لكم أن هذا لا يمكن تصويره إلا فى بلاد مغلوبة على أمرها مسلوبة إرادتها .
 إن الأدب القومى فى كل بلد يفيض بتمجيد الوطن والحض على الجهاد فى
 سبيله ولم يقل أحد بضرورة تنقية الأدب القومى من الروح الوطنية حتى لا تقف
 الأدبيات القومية فى طريق التعاون العالمى .

فلماذا إذن نطالب بتضحية تاريخنا القومى .

لا أيها السادة ! ليس هناك تعارض بين القومية الصحيحة وبين مبدأ العالمية .
 بل إنى أقرر أكثر من ذلك وأقول إنه لا سبيل إلى العالمية إلا عن طريق
 القومية . وكما أن الأسر والقبائل والقوميات الوطنية لم تتكون وتتحقق إلا بعد

أن نهضت وحداتها وتآلفت واتحدت كذلك ستكون الاتحاد العالمى عند ما تنهض وحداته وتتآلف قومياته . وهل تستطيع « الأوركستر الموسيقية » أن تلائم نغماتها وتصدق بحسن ألحانها إلا إذا اتقن كل فرد تخرج نغمه على وتره الخاص ؟ وهل تنجح « التمثيلية » إلا إذا تعاون الممثلون وأتقن كل منهم دوره .

إن الشعوب الصغيرة لن تبقى أبدا الدهر تكافح من أجل استقلالها والوصول إلى حقها الطبيعى فى الحياة والوجود . وهما هو ذا العالم يشهد للمرة الثانية جحافل الحرية والمدنية تسير قدما فى سبيل تحرير العالم من الظلم والاستعباد ومتى انتصرت مبادئ الديمقراطية وأخلص الحلفاء فى تحقيق وعودهم استطاعت الشعوب أن تنظم بيوتها وأن تجتاز مرحلة الوحدة القومية وهى آمنة مطمئنة وعند ذلك فقط نستطيع أن ندعو الشعوب سواء الصغيرة منها أو الكبيرة إلى تعاون عالمى تحقق فيه راية الوطن إلى جانب علم الاتحاد العالمى .

وهذا هو الهدف الجديد الذى ستتضافر لبلوغه القوى الإنسانية جمعا إن آجلا أو عاجلا . لقد كانت الحدود والمسافات فى الماضى هى الحصن الأمين الذى احتمت وراءه الدول والشعوب ، كما كانت سهولة المواصلات هى الفاعل الفعال فى توثيق الروابط بين الأقاليم والشعوب بعضها وبعض ، أما الآن وقد انمحت الحدود أو كادت وألغيت المسافات أو كادت ، أما الآن وقد تضافرت القوى الطبيعية والعلمية على القضاء على خرافة العزلة المنيعه بعد انتشار الكهرباء واللاسلكى والطيران بدرجة جعلت المسافات بين ممالك العالم تقطع فى زمن أقصر مما كان يستلزمه الانتقال فى الماضى بين المدن فى المملكة الواحدة وجعلت الناس من أقصى المعمورة إلى أقصاها يتحدث بعضهم بعضاً ويرى بعضهم بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً كل ذلك فى لمح البصر . أما الآن فإن هذه السرعة فى المواصلات مع استخدام الخترعات الحديثة قد حولت الحرب من ظاهرة محلية أو قارية إلى

ظاهرة دولية عالمية وصارت قوة التدمير والتخريب في الحروب لا يقتصر أثرها على الحصون والمحارِبين والأهداف العسكرية ولكنها تعم الأنحاء وتكتسح الأرجاء ويستهدف لها النساء والأطفال والعجزة والمحايدون كغيرهم من المحاربين لذلك كله ستتجه الدول حتماً إلى نبذ سياسة الحيطة أو العزلة السياسية وتحول بكامل قوتها إلى تنظيم تعاون عالمي يعصمها من الوقوع في مثل كارثتي عام ١٩١٤ وعام ١٩٣٩ .

وهنا تجيء مهمة المعلم ومهمة معلم التاريخ أولاً قرب درس في التاريخ أنشأ تاريخ أمة وحوّل تاريخ البشر وما تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم ببعيد عنا ؛ بل هو قريب إلى قلوبنا ، فقد أنشأ مدينة العرب وأشاع بين العالم الإسلامي قديماً وحديثاً روحاً من الإخاء والمساواة وجعل للشعوب العربية في نظر الناس مقاماً محسوداً سيديها قريباً مكانها الممتاز بين أمم العالم .

لا شك أن هذا الهدف الجديد في السياسة العالمية يستوجب تعديلاً وتحويلاً في سياسة التعليم — تعليم المواد الاجتماعية ، وتعليم التاريخ بالذات . أما كيف ندرس التاريخ فأمر سهل ، فما التاريخ إلا عمل الإنسان في الحياة إن خيراً وإن شراً ، وواجبنا أن ندرسه بقصد أن يزداد الخير على يد النشء فيقفون على جهود أسلافهم ويوطنون العزم على تجنب الشر واستكمال الخير الذي ينقص بينهم ووطنهم والإنسانية جمعاء .

وعليهم أن يلموا بتاريخ المدن الإنسانية جميعاً وما قدمته كل منها من خير وشر كما عليهم أن يدرسوا التاريخ كوسيلة لفهم الحاضر وفهم الحياة التي تحيط بهم .

أما أتم أيها المدرسون فلا تعلقوا أهمية كبرى على الأسانيد والوثائق ، فهذه كالأحصاءات يمكن الاستدلال بها على الشيء ونقيضه في آن واحد .

أخبرني ثقة في وزارة الداخلية أنه زار مأموراً وسأله عن حالة الأمن في مركزه فأوضح له بالإحصاءات أن نسبة الجرائم في هبوط ، ولذلك فإن الأمن في المركز على خير ما يرام ، وزاره في السنة التالية وسأله عن الحالة ، فلاحظ من الإحصاءات أن نسبة الجرائم في صعود ، ولكن المأمور أكد له أن الحالة حسنة والأمن عام . قال وكيف يكون ذلك ؟ قال لأننا نشدد في ضبط الوقائع وثبتنا أيّاً كانت دون أى تهاون . !

وهكذا الحال في الوثائق والأسانيد . إذن فسيروا في تدريس التاريخ بالطريقة العلمية في نقد الحقائق وتعليلها والاستنتاج منها ، وسيروا فيه بالطريقة الأدبية فأجيدوا الوصف والإلقاء واستعينوا بالشعر والنثر والاقتباسات بقدر ما تسمح به المادة والزمن . وسيروا فيه بالطريقة الفنية فعالجوا تاريخ الفنون وحببوا النشء في روائع الجمال الذي عبر عنه التاريخ بالشعر والنثر والرسم والنقش والنحت والبناء والغناء والموسيقى . وسيروا فيه بالطريقة الشخصية فخللوا أعمال الأبطال وانقدوهم وبينوا أثر البيئة في آرائهم وأعمالهم .

ولا تترددوا في ذكر آرائكم إذا سألكم طالب ، ولكن حذار أن تفرضوا آراءكم عليهم فالطفل لا يقال له هذا حلو وذلك مر ، بل إنه يفضل أن يتذوق من هذا ومن ذاك ثم يحكم بنفسه ، ولا تجمعوا عن ذكر أبطال الحرب كما قد يقال لكم ، فإن للحرب آثاراً ونتائج خطيرة لا سبيل إلى إنكارها أو إهمال أمرها ، ولكن إلى جانب أبطال الحرب أشيدوا بأبطال السلم أولئك الذين رفعوا الجنس البشري برسالاتهم ، وبما ألفوا وما أنشئوا وبما اخترعوا وما أقاموا .

علمهم تاريخ الديانة البشرية وتاريخ الكتابة والصناعة والطباعة وكشف

الحديد والبخار والوقود والنظم الديمقراطية والطب والفن ، وجنبوهم في التاريخ حب الاستعمار والانتقام والمنافسات العنصرية والدينية والكفاح بين الشرق والغرب ، وليكن هدفنا في دراسة التاريخ تطور الإنسانية والمدنية ، وما يحيط بنا من نظم وقوانين ومشاكل واختراعات ومشروعات وبحث ما قدمته الشعوب للأجيال في هذا السبيل .

وكلمتي إليكم في النهاية أن تجعلوا من التاريخ علماً حياً يتصل بجميع أسباب الحياة وعلى حسن فهمه يتوقف تعاون البشر وسعادتهم ، وأن تكونوا معلمين للتاريخ الماضي والحاضر ومبشرين بالتاريخ المستقبل ، فتدرسوا الماضي كأن العالم سائر إلى النهاية غداً وتدرسوا الحاضر وتبشروا بالمستقبل كأنكم عاشون أبداً .

ملحق - ح

ميثاق الإطلمنطى

(١٤ أغسطس سنة ١٩٤١)

اتهمز رئيس الولايات المتحدة ومستر تشرشل نائباً عن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى فرصة اجتماعهما معاً وأعلننا للملأ بعض المبادئ المشتركة فى السياسة الوطنية التى تتبعها حكومتا البلدين وتتخذانها أساساً يقام عليه صرح الأمل فى مستقبل أسعد للعالم :

١ - لا نطمع الحكومتان فى توسيع رقعة بلادهما بضم أراض جديدة إليها أو بغير ذلك .

٢ - لا ترغب الحكومتان فى إحداث تغييرات إقليمية لا توافق ورغبات الشعوب المختصة بشرط أن تعطى الحرية الكاملة للتعبير عن هذه الرغبات .

٣ - تحترم الحكومتان فى حق جميع الشعوب فى اختيار نوع الحكومة أو نظام الحكم الذى ترضاه لنفسها . وترغبان فى أن تسترد الشعوب التى اعتدى عليها بالقوة استقلالها وسيادتها .

٤ - ترغب الحكومتان - مع احترامهما لالتزاماتهما الحالية - فى أن تتمتع جميع الدول كبيرها وصغيرها ، المنتصر منها والمنهزم ، بحق التساوى فى فرص التجارة والحصول على الخامات لتقدمها الاقتصادى .

٥ - ترغب الحكومتان فى إيجاد تعاون وثيق شامل بين جميع الدول فى الميدان الاقتصادى للعمل على رفع مستوى العمل والأخذ بأسباب الرقى الاقتصادى والتأمين الاجتماعى .

٦ — تأمل الحكومتان بعد قمع الطغيان النازى ، إقامة دعائم سلام يتيح للناس جميعاً أن يعيشوا فى أمن وسلام داخل حدودهم متحررين من الخوف والعوز

٧ — إن الصلح الذى يحقق المبادئ المذكورة لكفيل بأن يمكن للناس جميعاً أن يجتازوا البحار والمحيطات بدون عائق .

٨ — تعتقد الحكومتان لاعتبارات مادية وروحية أن الشعوب سينتهى بها الأمر إلى نبذ استعمال القوة ، ونظراً إلى أنه يستحيل أن يقوم سلام فى المستقبل إذا بقيت القوات البرية والبحرية والجوية ميسرة لبعض الدول التى تهدد أو يمكن أن تهدد بالعدوان غيرها خارج حدودها ، لذلك تعتقد الحكومتان — إلى أن يتم إنشاء نظام شامل دائم لتأمين السلام العام — وجوب تجريد مثل تلك الأمم من سلاحها . وستعمل الحكومتان فى نفس الوقت على معاونة وتشجيع الشعوب المحبة للسلام فى سبيل تخفيف عبء التسليح فيها بكل الوسائل الممكنة .

ملحق - ٥

مقترحات مؤتمر « ديمبارتون أوكس »

(أكتوبر ١٩٤٤)

لإنشاء هيئة دولية عامة

تنشأ هيئة دولية باسم « الأمم المتحدة The United Nations » يتضمن
ميثاقها النصوص اللازمة لتنفيذ المقترحات الآتية :

أولاً - الأغراض

تحدد أغراض الهيئة على الوجه الآتى :

- ١ - المحافظة على السلم والأمن الدوليين . وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التى تهدد السلم وإزالتها ، ولقمع أعمال العدوان أو سواها مما يخل بالسلم ، والتدفع بالوسائل السلمية لإيجاد تسوية أو حلول للخلافات الدولية التى يمكن أن تؤدى إلى الانتفاض على السلام .
- ٢ - إنماء العلاقات الودية بين الأمم واتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلام العام .
- ٣ - تحقيق التعاون الدولى فى حل المسائل الدولية الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية .
- ٤ - إيجاد أداة مركزية لتنسيق أعمال الأمم فى تحقيق هذه الغايات المشتركة

ثانياً - المبادئ

وتحقيقاً للأغراض الواردة في الباب الأول تعمل الهيئة وأعضاؤها وفق المبادئ الآتية :

- ١ - تقوم الهيئة على مبدأ المساواة في السيادة بين جميع الدول الحجة للسلام
 - ٢ - رغبة في ضمان الحقوق والمزايا المستمدة من عضوية الهيئة لجميع أعضائها يتعهد أعضاء الهيئة بالوفاء بما التزموا به من تعهدات وفق الميثاق .
 - ٣ - يسوى جميع أعضاء الهيئة خلافاتهم بالوسائل السلمية بكيفية لا تعرض السلم والأمن الدوليين لأى خطر .
 - ٤ - يمتنع جميع أعضاء الهيئة ، في علاقاتهم الدولية ، عن استعمال القوة أو التهديد بها بأية كيفية تنافى أغراض الهيئة .
 - ٥ - يقدم جميع الأعضاء كل مساعدة للهيئة في أى عمل تباشره وفق أحكام الميثاق .
 - ٦ - يمتنع جميع أعضاء الهيئة عن تقديم المساعدة لأية دولة تتخذ الهيئة ضدها تدابير واقية أو قاهرة .
- وعلى الهيئة أن تعمل على أن تقف الدول غير الأعضاء فيها موقفاً يتفق مع هذه المبادئ ، بالقدر الذى قد يقتضيه صون السلم والأمن الدوليين .

ثالثاً - العضوية

يفتح باب العضوية فى الهيئة لجميع الدول الحجة للسلام .

رابعاً - تكوين الهيئة

- ١ - الأقسام الرئيسية للهيئة هى :
- (١) الجمعية العمومية .

(ب) مجلس الأمن .

(ح) محكمة العدل الدولية .

(د) السكرتيرية .

خامساً — الجمعية العمومية

يشترك جميع أعضاء الهيئة في عضوية الجمعية العمومية وينوب عنهم عدد من الممثلين يحدّد في الميثاق .

مفهوم الجمعية العمومية :

١ — يكون للجمعية العمومية الحق في بحث المبادئ العامة للتعاون في المحافظة على السلم والأمن الدوليين بما في ذلك المبادئ المتعلقة بنزع السلاح وتنظيم التسليح وكذلك في بحث جميع المسائل المرتبطة بالمحافظة على السلم والأمن الدوليين التي يعرضها عليها عضو أو أكثر من أعضاء الهيئة أو مجلس الأمن . وليس للجمعية العمومية أن تقدم من تلقاء نفسها توصيات بشأن أية مسألة مرتبطة بالمحافظة على السلم والأمن الدوليين ويكون مجلس الأمن قائماً ببحثها .

٢ — تخول الجمعية العمومية — بناء على توصية مجلس الأمن — سلطة قبول أعضاء جدد في الهيئة .

٣ — تخول الجمعية العمومية — بناء على توصية مجلس الأمن — السلطة في وقف مباشرة العضوية حقوق أو مزايا مترتبة على العضوية إذا كان مجلس الأمن قد اتخذ ضده إجراءً واقعياً أو قاهراً . ويجوز إعادة مباشرة الحقوق والمزايا الموقوفة على هذا النحو بقرار من مجلس الأمن . وتخول الجمعية العمومية — بناء

على توصية مجلس الأمن — حق إسقاط عضوية الهيئة عن أى عضو يصر على الإخلال بالمبادئ التى يتضمنها الميثاق .

٤ — الجمعية العمومية هى التى تتولى انتخاب أعضاء مجلس الأمن غير الدائمين وكذلك أعضاء المجلس الاقتصادى والاجتماعى المنصوص عليه فى الباب التاسع . وتتحول — بناء على توصية مجلس الأمن — سلطة انتخاب سكرتير عام الهيئة . ويقوم بالوظائف التى قد تحول إليها بصدد انتخاب قضاة محكمة العدل الدولية بمقتضى النظام الأساسى لهذه المحكمة .

٥ — تقسم الجمعية العمومية المصروفات بين أعضاء الهيئة وتحول سلطة اعتماد ميزانيات الهيئة .

٦ — تقوم الجمعية العمومية بتوجيه الدراسات وإبداء التوصيات التى ترمى إلى تعزيز التعاون الدولى فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

٧ — تقدم الجمعية العمومية التوصيات لتنسيق سياسات المؤسسات الدولية المتخصصة فى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغيرها والتى تتصل بالهيئة وفق اتفاقات تعقد بينها وبين الهيئة .

٨ — تتلقى الجمعية العمومية وتبحث تقارير سنوية وتقارير خاصة من مجلس الأمن وكذلك تقارير من أقسام الهيئة الأخرى .

التصويت :

- ١ — يكون لكل عضو فى الهيئة صوت واحد فى الجمعية العمومية .
- ٢ — تصدر القرارات الهامة من الجمعية العمومية بأغلبية ثلثى الأعضاء الحاضرين والمشاركين فى التصويت . وهذه القرارات تشمل التوصيات الخاصة بالحفاظة على السلم والأمن الدوليين ، وانتخاب أعضاء مجلس الأمن ، وانتخاب

أعضاء المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، وقبول الأعضاء ، ووقف مباشرة الأعضاء لحقوقهم ومزاياهم ، وإسقاط عضوية الأعضاء ، وكذلك مسائل الميزانية . وتصدر قرارات الجمعية العمومية بأغلبية الأصوات العادية فى المسائل الأخرى بما فى ذلك تحديد أنواع المسائل الإضافية التى يرى أن تصدر القرارات فيها بأغلبية ثلثي الأصوات .

سادساً — مجلس الأمن

نكوبه :

يشكل مجلس الأمن من ممثل لكل من أحد عشر عضواً من أعضاء الهيئة . ويكون لممثلى الولايات المتحدة الأمريكية — والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية — واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية — وجمهورية الصين — وفرنسا فى الوقت المناسب — مقاعد دائمة . وتنتخب الجمعية العمومية ست دول لشغل المقاعد غير الدائمة . وتنتخب هذه الدول الست لمدة سنتين ، ويخرج منها ثلاث كل سنة ، ولا يجوز إعادة انتخابها عقب خروجها مباشرة . وفى أول انتخاب للأعضاء غير الدائمين تختار الجمعية العمومية ثلاثة منهم لمدة سنة واحدة وثلاثة آخرين لمدة سنتين .

حقوق المجلس :

١ — رغبة فى ضمان قيام الهيئة بعمل سريع يكون له أثر فعال يعهد الأعضاء بمقتضى الميثاق لمجلس الأمن بالمسؤولية الأولى للمحافظة على السلم والأمن الدوليين . ويتفقون على أن المجلس فى اضطلاعه بهذه الواجبات بناء على هذه المسؤولية — إنما يعمل نيابة عنهم .

٢ - في القيام بهذه الواجبات يعمل مجلس الأمن وفق أغراض الهيئة ومبادئها .

٣ - السلطات الخاصة المخولة لمجلس الأمن للقيام بهذه الواجبات محددة في الباب الثامن .

٤ - يلتزم جميع أعضاء الهيئة بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها وفق أحكام الميثاق .

٥ - رغبة في المساعدة على تحقيق السلم والأمن الدوليين والحفاظة عليهما بأقل تحويل لموارد العالم الإنسانية والاقتصادية إلى ناحية التسليح ، يكون مجلس الأمن مسئولاً عن وضع الخطط اللازمة لتنظيم التسليح لعرضها على أعضاء الهيئة . ويستعين في ذلك بمعونة لجنة أركان الحرب المشار إليها فيما يلي :

التصويت :

ملاحظة - (لايزال موضوع إجراءات التصويت في مجلس الأمن محل البحث)

الإجراءات :

١ - ينظم مجلس الأمن بحيث يكون قادراً على العمل باستمرار ، ويجب أن تمثل كل دولة من أعضاء مجلس الأمن تمثيلاً دائماً في مقر الهيئة ، وله أن يعقد اجتماعات في أماكن أخرى على النحو الذي يراه حقيقياً بتسهيل عمله على أحسن وجه ، وله أن يعقد اجتماعات دورية يمكن لكل دولة من أعضاء مجلس الأمن أن تمثل فيها إذا رغبت في ذلك بواسطة عضو من أعضاء حكومتها أو مندوب آخر خاص .

٢ - يخول مجلس الأمن سلطة إنشاء الأقسام والمؤسسات التي يرى لزومها للقيام بوظائفه بما في ذلك اللجان الفرعية الإقليمية للجنة أركان الحرب .

٣ — يضع مجلس الأمن لائحة إجراءاته بما في ذلك طريقة اختيار رئيسه .
 ٤ — لكل عضو من أعضاء الهيئة أن يشترك في مناقشة أية مسألة مطروحة على مجلس الأمن إذا رأى المجلس أن تلك المسألة تمس مصالح هذا العضو بصفة خاصة .

٥ — يجب أن يدعى للاشتراك في المناقشة الخاصة بنزاع يبحثه مجلس الأمن أي عضو من أعضاء الهيئة ليس له مقعد في المجلس ، أو أية دولة ليست عضواً في الهيئة ، إذا كان العضو أو الدولة طرفاً في النزاع .

ثامناً — تدابير المحافظة على السلم والأمن الدوليين بما في ذلك منع العدوان وقعه .

التسوية السلمية للمنازعات :

١ — يخول مجلس الأمن سلطة فحص أي نزاع أو أي موقف يمكن أن يؤدي إلى احتكاك دولي أو يثير نزاعاً ، وذلك لتقرير ما إذا كان استمراره يحتمل أن يهدد المحافظة على السلم والأمن الدوليين .

٢ — يجوز لكل دولة عضو في الهيئة أو غير عضو فيها ، أن ترفع أي نزاع أو أية حالة مما تقدم ذكره إلى الجمعية العمومية أو إلى مجلس الأمن .

٣ — يلتزم أطراف النزاع ، الذي يحتمل أن يهدد استمراره المحافظة على السلم والأمن الدوليين ، بالعمل على فضة بطريق المفاوضة أو الوساطة أو التوفيق أو التحكيم أو التسوية القضائية أو غير ذلك من الوسائل السلمية التي يختارونها . وعلى مجلس الأمن أن يطلب إليهم فض نزاعهم بمثل هذه الوسائل .

٤ — إذا أخفق رغم ذلك المتنازعون في نزاع من النوع المشار إليه في

الفقرة السابقة في تسويته بالوسائل المبينة في تلك الفقرة ، وجب عليهم الالتزام بإحالاته إلى مجلس الأمن . ويقرر مجلس الأمن في كل حالة ما إذا كان استمرار النزاع الخاص من شأنه أن يهدد في الواقع المحافظة على السلم والأمن الدوليين أو لا يهددهما . وطبقاً لذلك يقرر المجلس ما إذا كان يتولى معالجة النزاع . وفي هذه الحالة يقرر ما إذا كان هناك محل لاتخاذ عمل طبقاً للفقرة الخامسة .

٥ — ينحول مجلس الأمن السلطة ، في أية مرحلة من مراحل نزاع من النوع المشار إليه في الفقرة السابقة ، في أن يوصى بالاجراءات أو بطرق التسوية الملائمة .

٦ — المنازعات القابلة للعرض على القضاء تحال عادة إلى محكمة العدل الدولية وينحول مجلس الأمن أن يحيل إلى المحكمة — لإبداء الرأي المسائل القانونية المتصلة بمنازعات أخرى .

٧ — لا تسرى الأحكام السابقة على الحالات أو المنازعات التي تنشأ بسبب أمور لا تدخل بحكم القانون الدولي إلا في السلطان الداخلي للدولة ذات الشأن .

تحميد الاعمال التي تهدد السلم أو أعمال العدوان والتدابير التي تتخذ ضدها :

١ — إذا قدر مجلس الأمن أن الإخفاق في تسوية نزاع — وفق الإجراءات المبينة — يهدد المحافظة على السلم والأمن الدوليين ، وجب عليه أن يتخذ التدابير اللازمة للمحافظة على السلم والأمن الدوليين وفق أغراض الهيئة ومبادئها .

٢ — يقرر مجلس الأمن على العموم وجود ما يهدد السلم أو يخل به أو وقوع أعمال العدوان . ويتقدم بالتوصيات أو يقرر التدابير التي تتخذ للمحافظة على السلم والأمن أو لإعادتهما .

٣ — يخلو مجلس الأمن السلطة لتقرير الإجراءات الدبلوماسية أو الاقتصادية أو غيرها التي لا تنطوي على استعمال القوة المسلحة ، والتي يجب اتخاذها لتنفيذ قراراته ، وكذلك دعوة أعضاء الهيئة إلى تطبيق مثل هذه التدابير . ويجوز أن تتناول هذه التدابير الوقف الكلى أو الجزئى للمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وغير ذلك من وسائل المواصلات ، وقطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية .

٤ — إذا قدر مجلس الأمن أن مثل هذه التدابير غير كافية كانت له السلطة فى أن يتخذ من التدابير — عن طريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية — ما يراه لازماً للمحافظة على السلم والأمن الدوليين أو لإعادتهما . ويجوز أن تتناول مثل هذه التدابير المظاهرات والحصر وغير ذلك من العمليات بواسطة القوات البرية أو البحرية أو الجوية التابعة لأعضاء الهيئة .

٥ — رغبة فى مساهمة جميع أعضاء الهيئة فى المحافظة على السلم والأمن الدوليين ، يتعهد هؤلاء الأعضاء بأن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن بناء على طلبه وطبقاً لاتفاق خاص أو اتفاقات معقودة فيما بينهم — القوات المسلحة والتسهيلات والمساعدة اللازمة للمحافظة على السلم والأمن الدوليين . ويحدد مثل هذا الاتفاق أو الاتفاقات عدد وأنواع القوات وطبيعة التسهيلات والمساعدات التى تقدم ، ويبرم الاتفاق الخاص أو الاتفاقات بأسرع ما يمكن ، وتخضع فى كل حالة لاعتماد مجلس الأمن ولتصديق الدول الموقعة وفق مقتضيات نظمها الدستورية .

٦ — رغبة فى تمكين الهيئة من اتخاذ التدابير الحربية العاجلة يضع أعضاء الهيئة على قدم الاستعداد فوراً ، وحدات جوية أهلية للاشتراك فى الأعمال الدولية القاهرة المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوة هذه الوحدات ومدى استعدادها وبرامج لأعمالها المشتركة . وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب وفى الحدود الواردة فى الاتفاق الخاص أو فى الاتفاقات المشار إليها فى الفقرة السابقة .

٧ — يقوم جميع أعضاء الهيئة بالأعمال اللازمة لتنفيذ قرارات مجلس الأمن
للمحافظة على السلم والأمن الدوليين ، إما سويًا وإما بواسطة البعض منهم ،
بالكيفية التي يقرّها مجلس الأمن . وينفذ أعضاء الهيئة هذا الالتزام بقيامهم
بأنفسهم بالأعمال اللازمة ، وعن طريق الهيئات والمؤسسات المتخصصة ذاتها التي
يكونون أعضاء فيها .

٨ — خطط استخدام القوة المساحة ، يضعها مجلس الأمن بمساعدة لجنة
أركان الحرب المشار إليها في الفقرة الآتية .

٩ — تشكل لجنة أركان حرب ، تكون وظيفتها إسداء المشورة والمعونة
لمجلس الأمن في جميع الأمور المرتبطة بما يلزمه من حاجات حربية للمحافظة على
السلم والأمن الدوليين ، والمرتبطة كذلك باستخدام وقيادة القوات الموضوعة
تحت تصرفه ، وتنظيم التسليم وبنزع السلاح بالقدر المستطاع . وتكون هذه اللجنة
مسئولة بإشراف مجلس الأمن عن التوجيه الاستراتيجي لأية قوات مساحة موضوعة
تحت تصرف المجلس . وتشكل اللجنة من رؤساء هيئات أركان حرب الأعضاء
الدائمين بالمجلس أو ممثليهم ، وعلى اللجنة أن تدعو كل عضو من أعضاء الهيئة غير
ممثل بصفة مستديمة في اللجنة للاشتراك معها ، إذا اقتضى حسن قيام اللجنة
بمسئولياتها مساهمة مثل هذه الدولة في أعمالها ، وترتب مسائل قيادة القوات
بعد ذلك .

١٠ — يساهم أعضاء الهيئة في توفير المساعدة المتبادلة لتنفيذ التدابير التي
يقرّها مجلس الأمن .

١١ — كل دولة — عضو أو غير عضو في الهيئة — تواجه مسائل اقتصادية
خاصة ناجمة عن تنفيذ التدابير التي قرّرها مجلس الأمن يكون لها الحق في
استشارة مجلس الأمن بصدد حل هذه المشكلات .

الأنظمة الإقليمية :

١ — ليس في الميثاق ما يمنع من قيام أنظمة أو مؤسسات إقليمية لمعالجة الأمور الخاصة بالحفاظ على السلم والأمن الدوليين مما يتسنى معالجته إقليمياً . إنما يشترط أن تتمشى هذه الأنظمة أو المؤسسات ونشاطها ، مع أغراض الهيئة ومبادئها . وعلى مجلس الأمن أن يشجع تسوية المنازعات المحلية بواسطة مثل هذه الأنظمة أو المؤسسات الإقليمية ، إما بمبادأة الدول التي يعينها الأمر وإما بالإحالة من مجلس الأمن .

٢ — يستخدم مجلس الأمن بسلطته مثل هذه الأنظمة أو المؤسسات في أعمال القهر ، إذا رأى ملاءمة ذلك . غير أنه لا يمكن القيام بأى عمل من أعمال القهر عن طريق الأنظمة أو المؤسسات الإقليمية ، بغير إذن مجلس الأمن .

٣ — يجب أن يحاط مجلس الأمن في كل وقت إحاطة تامة بما يجري من نواحي النشاط ، أو يزعم اتخاذه منها بمقتضى أنظمة أو مؤسسات إقليمية للحفاظ على السلم والأمن الدوليين .

تاسعاً — تدابير خاصة بالتعاون الدولي الاقتصادي والاجتماعي

عاشراً — السكرتيرية

التعديلات

تسرى التعديلات على جميع أعضاء الهيئة متى صدرت بموافقة ثلثي أعضاء الجمعية العمومية وأقرها أعضاء الهيئة الذين لهم مقاعد دائمة في مجلس الأمن وكذلك أغلبية الأعضاء الآخرين .

ملحق — هـ

ميثاق جامعة الدول العربية

مادة ١ : تتألف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة الواقعة على هذا الميثاق ولكل دولة عربية مستقلة الحق في أن تنضم إلى الجامعة ، فإذا رغبت في الانضمام قدمت طلباً بذلك يودع لدى الأمانة العامة الدائمة ويعرض على المجلس في أول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب .

مادة ٢ : الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة في شئون البلاد العربية ومصالحها . كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشئون الآتية : —

(أ) الشئون الاقتصادية والمالية ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعمل وأموال الزراعة والصناعة .

(ب) شئون المواصلات ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

(ج) شئون الثقافة .

(د) شئون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .

(هـ) الشئون الاجتماعية .

(و) الشئون الصحية .

مادة ٣ : يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة في الجامعة ويكون لكل منها صوت واحد مهما يكن عدد ممثليها .
وتكون مهمته القيام على تحقيق أغراض الجامعة ومراعاة تنفيذ ما تبرمه الدول المشتركة فيها من اتفاقات في الشؤون المشار إليها في المادة السابقة وفي غيرها .

ويدخل في مهمة المجلس كذلك تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التي تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام ولتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

مادة ٤ : تؤلف لكل من الشؤون المبينة في المادة الثانية لجنة خاصة تمثل فيها الدول المشتركة في الجامعة وتتولى هذه اللجان وضع قواعد التعاون ومداه وصياغتها في شكل مشروعات اتفاقات تعرض على المجلس للنظر فيها تمهيداً لعرضها على الدول المذكورة .
ويجوز أن يشترك في اللجان المتقدم ذكرها أعضاء يمثلون البلاد العربية الأخرى . ويحدد المجلس الأحوال التي يجوز فيها اشتراك أولئك الممثلين وقواعد التمثيل .

مادة ٥ : لا يجوز الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة ، فإذا نشب بينها خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها أو سلامة أراضيها ولجأ المتنازعون إلى المجلس لفض هذا الخلاف كان قراره عندئذ نافذاً وملزماً .
وفي هذه الحالة لا يكون للدول التي وقع بينها الخلاف الاشتراك في مداولات المجلس وقراراته .

ويتوسط المجلس في الخلاف الذي يخشى منه وقوع حرب بين دولة

من دول الجامعة وبين أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها للتوفيق بينهما .

وتصدر قرارات التحكيم والقرارات الخاصة بالتوسط بأغلبية الآراء .

مادة ٦ : إذا وقع اعتداء من دولة على دولة من أعضاء الجامعة أو خشي وقوعه فللدولة المعتدى عليها أو المهددة بالاعتداء أن تطلب دعوة المجلس للانعقاد فوراً .

ويقرر المجلس التدابير اللازمة لدفع هذا الاعتداء ويصدر القرار بالإجماع ، فإذا كان الاعتداء من إحدى دول الجامعة لا يدخل في حساب الإجماع رأى الدولة المعتدية .

وإذا وقع الاعتداء بحيث يجعل حكومة الدولة المعتدى عليها عاجزة عن الاتصال بالمجلس فلممثل تلك الدولة فيه أن يطلب انعقاده للغاية المبينة في الفقرة السابقة ، وإذا تعذر على الممثل الاتصال بمجلس الجامعة حق لأية دولة من أعضائها أن تطلب انعقاده .

مادة ٧ : ما يقرره المجلس بالإجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة ، وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله .

وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقاً لنظمها الأساسية .

مادة ٨ : تحترم كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول وتمتعها بأن لا تقوم بعمل يرمي إلى تغيير ذلك النظام فيها .

مادة ٩ : لدول الجامعة العربية الرغبة فيما بينها في تعاون أوثق وروابط أقوى مما نص عليه الميثاق أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض .

والمعاهدات والاتفاقات التي سبق أن عقدتها أو التي تعقدتها فيما بعد دولة من دول الجامعة مع أية دولة أخرى لا تلزم ولا تقيد الأعضاء الآخرين .

مادة ١٠ : تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية وللمجلس الجامعة أن يجتمع في أى مكان آخر يعينه .

مادة ١١ : ينعقد مجلس الجامعة انعقاداً عادياً مرتين في العام في كل من شهرى مارس وأكتوبر، وينعقد بصفة غير عادية كلما دعت الحاجة إلى ذلك بناء على طلب دولتين من دول الجامعة .

مادة ١٢ : يكون للجامعة أمانة عامة دائمة تتألف من أمين عام وأمناء مساعدين وعدد كاف من الموظفين ويعين مجلس الجامعة بأكثرية ثلثي دول الجامعة الأمين العام . ويعين الأمين العام بموافقة المجلس الأمناء المساعدين والموظفين الرئيسيين في الجامعة .

ويضع مجلس الجامعة نظاماً داخلياً لأعمال الأمانة العامة وشؤون الموظفين .

ويكون الأمين العام في درجة سفير والأمناء المساعدون في درجة وزراء مفوضين .

ويعين في ملحق لهذا الميثاق أول أمين عام للجامعة .

مادة ١٣ : يعد الأمين العام مشروع ميزانية الجامعة ويعرضه على المجلس للموافقة عليه قبل بدء كل سنة مالية .

ويحدد المجلس نصيب كل دولة من دول الجامعة في النفقات ويجوز أن يعيد النظر فيه عند الاقتضاء .

مادة ١٤ : يتمتع أعضاء مجلس الجامعة وأعضاء لجانها وموظفوها الذين ينص

عليهم في النظام الداخلى بالامتيازات وبالخصانة الدبلوماسية أثناء قيامهم بعملهم .

وتكون مصونة حرمة المباني التى تشغلها هيئات الجامعة .

مادة ١٥ : ينعقد المجلس للمرة الأولى بدعوة من رئيس الحكومة المصرية و بعد ذلك بدعوة من الأمين العام .

ويتناوب ممثلو دول الجامعة رئاسة المجلس فى كل انعقاد عادى .

مادة ١٦ : فيما عدا الأحوال المنصوص عليها فى هذا الميثاق يكتفى بأغلبية الآراء لاتخاذ المجلس قرارات نافذة فى الشؤون الآتية :

(أ) شئون الموظفين .

(ب) إقرار ميزانية الجامعة .

(ج) وضع نظام داخلى لىكل من المجلس واللجان والأمانة العامة

مادة ١٧ : تودع الدول المشتركة فى الأمانة العامة للجامعة نسخاً من جميع المعاهدات والاتفاقات التى عقدها أو تعقدتها مع أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها .

مادة ١٨ : إذا رأت إحدى دول الجامعة أن تنسحب منها أبلغت المجلس عزمها على الانسحاب قبل تنفيذه بسنة .

ولجلس الجامعة أن يعتبر أية دولة لا تقوم بواجبات هذا الميثاق منفصلة عن الجامعة وذلك بقرار يصدره بإجماع الدول عدا الدولة المشار إليها .

مادة ١٩ : يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها أمتن وأوثق ولإنشاء محكمة عدل عربية ولتنظيم

صلات الجامعة بالهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام .

ولا يبت في التعديل إلا في دور الانعقاد التالي للدور الذي يقدم فيه الطلب .

وللدولة التي لا تقبل التعديل أن تنسحب عند تنفيذه دون التقييد بأحكام المادة السابقة .

مادة ٢٠ : يصدق على هذا الميثاق وملاحقه وفقاً للنظم الأساسية المرعية في كل من الدول المتعاقدة وتودع وثائق التصديق لدى الأمانة العامة ويصبح الميثاق نافذاً قبل مَن صدق عليه بعد انقضاء خمسة عشر يوماً من تاريخ استلام الأمين العام وثائق التصديق من أربع دول .

حرر هذا الميثاق باللغة العربية في القاهرة بتاريخ ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٤ (٢٢ مارس سنة ١٩٤٥) من نسخة واحدة تحفظ في الأمانة العامة .

وتسلم صورة منها مطابقة للأصل لكل دولة من دول الجامعة .

التوقيعات :

سوريا	شمره الأورو	العراق	المملكة العربية السعودية	لبنان
فارس الخوري	سمير الرقاعي	أرشد العراق	يوسف ياسين	عبد الحميد كراي
جيل مردم	سعيد المفتي	علي جودت الأيوبي	خير الدين الزركلي	يوسف سالم
	سليمان النابلسي	تحسين العسكري		

مصر : محمود فهمي النقراشي — محمد حسين هيكل — عبد الحميد بدوي — مكرم عبيد — محمد حافظ رمضان — عبد الرزاق أحمد السهنوري — عبد الرحمن عزام .

ملحق خاص بفلسطين

منذ نهاية الحرب العظمى الماضية ، سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدولة العثمانية ، ومنها فلسطين ، ولاية تلك الدولة ، وأصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لأية دولة أخرى ، وأعلنت معاهدة لوزان أن أمرها لأصحاب الشأن فيها . وإذا لم تكن قد مكنت من تولى أمورها فإن ميثاق العصبة في سنة ١٩١٩ لم يقرر النظام الذي وضعه لها إلا على أساس الاعتراف باستقلالها . فوجودها واستقلالها الدولي من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه ، كما أنه لا شك في استقلال البلاد العربية الأخرى ، وإذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة ، فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلاً دون اشتراكها في أعمال مجلس الجامعة .

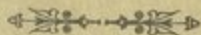
ولذلك ترى الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية أنه نظراً لظروف فلسطين الخاصة وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلاً يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربي عن فلسطين للاشتراك في أعماله .

ملحق خاص

بالتعاون مع البلاد العربية غير المشتركة في مجلس الجامعة

نظراً لأن الدول المشتركة في الجامعة ستباشر في مجلسها وفي لجانها شئونها يعود خيرها وأثرها على العالم العربي كله ، ولأن أمانى البلاد العربية غير المشتركة في المجلس ينبغي له أن يرعاها وأن يعمل على تحقيقها .

فإن الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعينها بوجه خاص أن توصى
مجلس الجامعة عند النظر في اشتراك تلك البلاد في اللجان المشار إليها في الميثاق ،
بأن يذهب في التعاون معها إلى أبعد مدى مستطاع ، وفيما عدا ذلك ، ألا يدخر
جهداً لتعرف حاجاتها وتفهم أمانيتها وآمالها ، وبأن يعمل بعد ذلك على صلاح
أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيؤه الوسائل السياسية من أسباب ما



فهرس الكتاب

صفحة

٣

الفصل الأول : تمهيد — لماذا نحارب

العامل الفريرى — العامل الاقتصادى — الحكومات
والصوالح الحيوية — التسليح والحرب مترادفان —
التوازن الدولى من أسباب الحروب .

١٨

الفصل الثانى : كيف نعاونت الدول

مبادئ الرسل الكرام — أثر الكنيسة — المشروعات
النظرية — المؤتمر الأوروبى — مبدأ منرو — المؤتمر
والثورة الاغريقية — مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ — التوسط
لمنع الحرب — التعاون الاجتماعى .

٣٩

الفصل الثالث : السلام المسلح

مؤتمر السلام فى لاهى — التوسط والتحكيم — الاتحاد
العام للبريد — نجاح التعاون الشعبى — الاندفاع نحو
الحرب : فى المانيا — فى بريطانيا — فى فرنسا —
فى الولايات المتحدة — فى روسيا — فى إيطاليا —
الحرب الكبرى .

٥٧

الفصل الرابع : ميثاق وعهد غير مسئول

مبادئ ولسون — مبدأ تقرير المصير — ولسون وميثاق
العصبة — الميثاق — عضوية عصبة الأمم — تخفيف
التسليح — نظام الانتداب — سائر المواد .

الفصل الخامس : أقطار الماضي

خدمات العصبة للسلم — عزلة روسيا وأمريكا — فشل
مبدأ التأمين المشترك — تفوق مبادئ السلم — ميثاق
كيلوج — مشروع الاتحاد الأوربي — بدء هبوب العاصفة
— انجلترا والعقوبات الاقتصادية — نجاح إيطاليا .

الفصل السادس : أهداف المستقبل

تناسق العقائد السياسية — السيادة القومية الكاملة —
الضمان الاقليمي — الهيئة التنفيذية — تخفيف التسليح —
جامعة الأمم الجديدة — فشل نظام العزلة — نظام المحالفات
— نظام الاتحادات — مؤتمر السلام المنتظر وموائقه —
ميثاق الاطلنطي — الحريات الأربع — مؤتمر موسكو —
نصيب مصر .

ملحق ١ : أهداف مصر السياسية والدولية بعد الحرب

السياسة الداخلية والخارجية — الدول العظمى — القوة
البحرية — مصر وقناة السويس — مصر في افريقية —
مصر والوحدة العربية .

ملحق ٢ : القومية والعالمية في تدريس التاريخ

ملحق ٣ : ميثاق الاطلنطي

ملحق ٤ : مقترحات « رهبان تونو أوكس »

ملحق ٥ : ميثاق جامعة الدول العربية

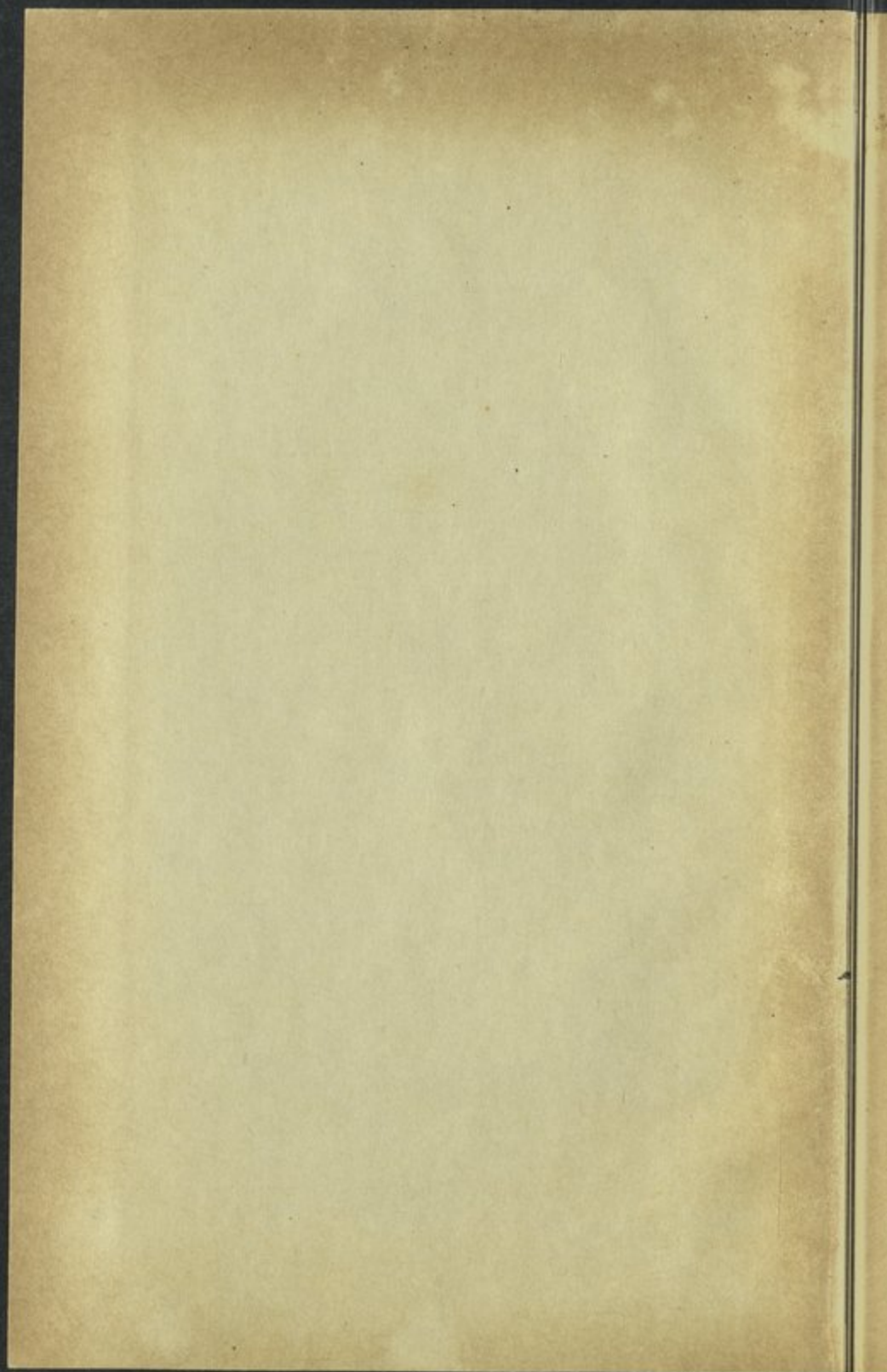
بعض مراجع الكتاب

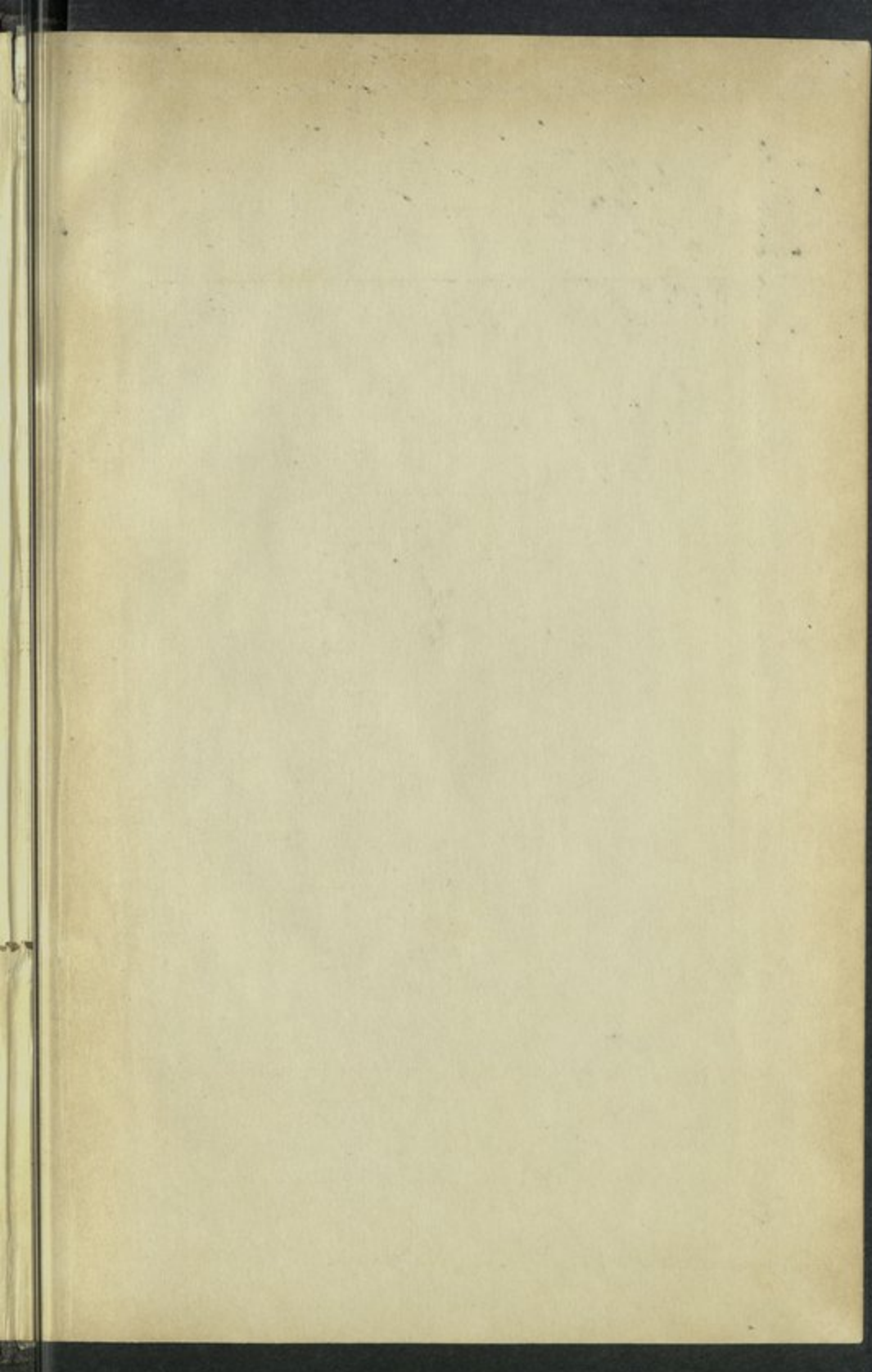
- Carr** : "International Relations Since The
Peace Treaties." (*Macmillan*)
- Curry** : "The Case for Federal Union"
(*Penguin*)
- de Sales** : "The Making of Tomorrow"
(*George Allen & Unwin*)
- Dickinson** : "War" (*George Allen & Unwin*)
- Charles Dupuis** : "Le Concert Européan"
- Ellis** : "The Origin of the League of Nations"
- Forster** : "Charters of the Peace"
- Fisher** : "A History of Europe"
- Joad** : "Why War" (*Penguin*)
- Jones & Sherman** : "League of Nations"
- Reynolds** : "The League Experiment"
- Walker** : "Colonies"
- Ward** : "Securities of Peace"
- H.G. Wells** : "War & Peace"
- " " : "Outline of History"
- Winfield** : "Foundations and the Future of
"International Law"
- Alfred Zimmern** : "The League of Nations & the Rule
of Law"
- " " : "The Prospects of Civilisation"
- " " : "Nationality and Government"
- Walter Lippmann** : "War Aims"
- "A.B.C. of International Affairs"
- "Aims and Organisation of the League of Nations"
- "Speeches & Documents on International Affairs"

تم طبع هذا الكتاب في مطابع
دار المعارف بمصر يوم السبت
٧ من أبريل ١٩٤٥

شفيق نجيب مبرى

١٩٤٥/٤/١٤٥٨/١





341.1:R56tA:c.1

رفعت، محمد

التعاون الدولي والسلام العام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01019427

American University of Beirut



341.1

R56tA

General Library

341.1
R56tA